الفصل الأول

أ ـ الصراع العسكري بين المسلمين والروم في القرن الرابع الهجري.

ب ـ دور الدولة الحمدانية في حلب في هذا الصراع ممثلة بالأمير سيف الدولة الحمداني.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تمهيـد

دراسة تاريخية للصراع

منذ أن انبثق فجر الإسلام، والصراع العنيف دائر علىٰ أشده بين أفكار الإسلام وأفكار الكفر، وبين المسلمين والكفار، وقد بدأ هذا الصراع فكرياً بحتاً حين بُعِث رسول الله ﷺ ولم يصحبه أي صراع مادي، واستمر كذلك إلىٰ أن قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ووجد الجيش ووجدت القوة.

ومنذ ذلك الحين ضم رسول الله ﷺ الصراع الدموي إلىٰ جانب الصراع الفكري، ونزلت آيات الجهاد، واستمر الصراع كذلك وسيظل علىٰ هذه الطريقة، صراعاً دمويّاً إلىٰ جانب الصراع الفكري إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا كان الكفر عدواً للإسلام، وكان الكفار أعداء للمسلمين، ما وجد في الدنيا إسلام وكفر ومسلمون وكفار، إلىٰ يوم يبعثون، وهذه حقيقة قطعية دائمة، فلا بدّ أن يظل إدراكها واضحاً لدىٰ المسلمين في كل لحظة من لحظات الحياة، ولا بدّ أن تتخذ مقياساً من مقاييس العلاقات بين الإسلام والكفر وبين المسلمين والكفار.

وقد استمر الصراع الفكري ثلاثة عشر عاماً متتالية علىٰ أشد ما يكون من العنف والقسوة إلىٰ أن انتصرت أفكار الإسلام علىٰ أفكار الكفر وأظهر الله الإسلام، فقامت في المدينة الدولة التي تحمي الديار وتذب عن بيضة الإسلام، وتنشر الهدىٰ بين الناس عن طريق الجهاد، فبدأت الحروب بين الإسلام والكفر،

وبين جيوش المسلمين وجيوش الكفار في معارك متلاحقة، وفي منتهىٰ الغلظة والشدة. فكان النصر في هذه الحروب كلها للمسلمين.

توفي رسول الله ﷺ، بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام، وبعد أن قضى علىٰ الشرك فيها، وبعد أن أصبحت دار الإسلام تحكم بالإسلام كله عقيدة ونظاماً، وبعد أن أكمل الله الدين وأتم نعمته علىٰ المسلمين ورضي لهم الإسلام ديناً، وبعد أن بدأ بدعوة الأمم والشعوب المجاورة بإرسال الكتب إلىٰ ملوكها وحكّامها وبالسرايا والغزوات علىٰ حدود الروم في مؤتة وتبوك، وقد جاء بعده الخلفاء الراشدون فتتابعت الفتوحات، ففتح العراق، وكان يسكنه خليط من النصارىٰ والمزدكية والزردشتية والعرب والفرس، وفتحت فارس وكان يسكنها العجم وقليل من يهود والرومانيون، وكانت تدين بدين الفرس. وفتحت الشام، وكانت إقليماً رومانياً يثقف بثقافة الرومانيين ويتدين بالنصرانية ويسكنه السوريون والأرمن ويهود وبعض العرب وبعض الرومان.

أجل، فتح المسلمون بلاد الشام وانتصر فيها الحق علىٰ الباطل، والإيمان علىٰ الكفر، والعدل علىٰ الظّلم، والمسلمون علىٰ الكفار، وأجْلَوْا الروم الكافرين الظالمين عنها، ولكن الفتح الإسلامي وقف عند نهاية سوريا الشمالية أو ما فوق نهايتها بقليل، فإن المسلمين لمّا فتحوا بلاد الشام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية عند جبال طوروس، وجدوها أشد بأساً من جنود الروم وبسبب وعورة جبال طوروس، وبرد آسيا الصغرىٰ وقف الفتح الإسلامي في هذه الناحية فبقي شمال الشام مجاوراً للروم، الذين لم ينسوا هذا القطر الجميل وخيراته، بعد أنْ غلبهم المسلمون عليه في عهد الفاروق عمر بن الخطاب الشخصية الإسلامية الفذة وودعهُ هرقل قيصر الروم وداعة الحزين حين قال: وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده، فأنت اليوم بلاد الأعداء.

ومن أجل ذلك استمر الصراع الفكري والدموي بين المسلمين والكفار ومن أجل ذلك كان هؤلاء الروم لا يفتئون يغيرون عليه من الشمال فكثرت الحروب بينهم وبين المسلمين وتعددت الوقائع بين هؤلاء وهؤلاء، وكان ميدانها سورية

الشمالية، مما جعل الحصون والقلاع وشؤون الحرب في تلك البلاد أمراً لا مفر منه، لصدّ هؤلاء الأعداء الطامعين.

وقد دعت هذه الحال أن يكون في أقصىٰ شمال الشام إقليم يسميه المسلمون بالعواصم والثغور.

فأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب إلىٰ إسكندرونة وقد أطلق هذا الاسم لكثرة ما أقيم بها من الحصون المنيعة التي يعتصم بها الجنود المرابطون لصدّ هجوم الأعداء.

وأما الثغور[1] فواحدها ثغر وكأنه مأخوذ من ثغر وهي الفرجة في الحائط فهي ما وراء العواصم إلىٰ حدود جبال طوروس من البلاد الواقعة علىٰ الحدود بين الروم والمسلمين من الثغور الجزرية، والثغور الشامية مما يلي الشام.

وقد سميت بالثغور لأنها مواضع الإخافة من الأعداء، وكانت هذه الثغور كثيرة القلاع والحصون أيضاً كالعواصم، بل هي أولىٰ بالوقاية والتحصين، ومن أجل ذلك قد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم.

ومن بلاد العواصم والثغور بالس[2]، ومنبج[3]، وأنطاكية[4]، وملطية[5]،

---

(١) الثغور: بضم التاء مع التشديد وضم العين وبعدها واو وراء جمع، وهو كل موقع قريب من أرض العدو. (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٧٩ مادة ثغر).

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة سميت باسم (بالس بن الروم بن سام بن نوح علىٰ ضفة نهر الفرات الغربية. (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ١ ص٣٢٨).

(٣) منبج: مدينة ما زالت قائمة من أعمال حلب تقع غرب الفرات بفتح الميم وسكون النون. (العكبري: جـ٤ ص١٧٧).

(٤) أنطاكية: كانت قصبة العواصم في الثغور الشامية، حولها سور عظيم، وللسور ثلاثمائة وستون برجاً، دخلها الرشيد في غزواته فاستطابها، فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح. (ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص٢٦٨).

(٥) ملطية: بفتح الحرف الأول والثاني وتسكين الطاء وتخفيف الياء هي مدينة ببلاد الروم. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص١٩٢).

والحدث[١]، ومرعش[٢]، وزبطرة[٣]، وخرشنة[٤]، والمصيصة[٥]، والهارونية[٦]، فزبطرة مثلاً حصن كان من أقرب الثغور إلىٰ بلاد الروم والهارونية حصن صغير بناه هارون الرشيد فنسب إليه.

ولا شك أنّ كثيراً من هذه الحصون قد اشتركت في بنائه معظم الأمم التي تداولت حكم هذه البلاد المتنازع عليها منذ القدم، ثم آلت هذه الحصون إلىٰ المسلمين فزادوا فيها وحددوا علىٰ مر الأيام ما تقوض منها وتهدم وأول من أطلق علىٰ هذه الجهات اسم العواصم هارون الرشيد وقد جعلها جنداً خاصاً من بلاد الشام.

وأصل تسمية أقاليم الشام أجناداً يرجع إلىٰ بداية الفتح الإسلامي حيث كان العمال والولاة من قادة الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة، الذي يُعبّر عنه بالحامية، وكانت الجنود الإسلامية منقسمة إلىٰ قوات تقيم في محطات عسكرية فكانت عساكر الشام أربعة أجناد تقيم في دمشق وحمص، والأردن وفلسطين وقد جرىٰ هذا التقسيم علىٰ النظام الذي سلكه أبو بكر في فتح الشام، إذ عقد اللواء

---

(١) الحدث: قلعة بين ملطية وسميساط ومرعش، يقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء. (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٢٢٧).

(٢) مرعش: بفتح الميم وسكون الراء وفتح العين وآخرها شين. مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني نسبة إلىٰ مروان بن محمد آخر الخلفاء في بني أمية. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٢٥٨).

(٣) زبطرة: بكسر الزاي وفتح الباء وسكون الطاء وفتح الراء وآخره تاء مربوطة، مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلاد الروم. (ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص١٣١).

(٤) خرشنة: بفتح الخاء وسكون الراء ثم فتح الشين ونون وتاء مربوطة بلد قرب ملطية من بلاد البيزنطيين. (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٣٥٩).

(٥) المصيصة: مدينة علىٰ شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طوسوس. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص١٤٥).

(٦) الهارونية: حصن صغير بناه هارون الرشيد فنسب إليه سنة ١٨٣هـ وهي قرب مرعش بالثغور الشامية. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٣٨٨).

لأربعة من القادة: أبي عبيدة ووجهته حمص، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حَسنة ووجهته الأردن، وقد ولّى أبو بكر كلّ قائد من هؤلاء البلد الذي هو سائر بفتحه قبل خروجه إليه.

وظلت الشام علىٰ ذلك التقسيم الإداري حتىٰ ولي الخلافة يزيد بن أبي سفيان فجعلها خمسة أجناد وفي عهد عبد الملك بن مروان أفردت الجزيرة عن حمص وجعلت جندا قائماً بذاته.

وبلغت الأجناد ستة في عهد هارون الرشيد الذي أفرد العواصم من جند حمص وجعلها وحدها جنداً، والذي دعا إلىٰ إفراد هذا الجند كثرة غارات الروم علىٰ المجاهدين المسلمين.

استمر الصراع الدموي مصحوباً بالصراع الفكري منذ فتح هذه البلاد، فالروم يريدون أن يستعيدوا بلاداً كانت تحت حكمهم وحررها المسلمون نتيجة جهادهم أو يحتفظوا بما انتهت إليه حدودها عند جبال طوروس إذْ لم يمكنْهم المجاهدون المسلمون من التوغل بعد هذه الحدود.

وكذلك كان الحال لدىٰ المسلمين، يريدون أن يحرروا البلاد كلها من سيطرة الروم، بواسطة الجهاد، لكي ترفع راية الإسلام خفاقة وتذل راية الشرك وتنتشر الدعوة الإسلامية التي كلفهم الله بنشرها حيث إن الجهاد يعني كسر كل الحواجز التي تقف في وجه هذه الدعوة الإسلامية التي كلف الله بها النبي ﷺ لتبليغها إلىٰ الناس كافة حيث يقول الله جل شأنه في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

فإن لم يستطيعوا الفتح فيلحفظوا للإسلام حرمته أو يمنعوا حدود الدولة الإسلامية من عبث الكفار المشركين.

ومن أجل ذلك كانت الحدود بين هؤلاء وهؤلاء تميل نحو أرض الروم تارة ونحو أرض المسلمين تارة أخرى، ولا تكاد تستقر علىٰ حال منذ عهد الخلفاء الراشدين.

لقد كانت الدولة الإسلامية قوية منيعة في عهد الراشدين وظلت كذلك في عهد الأمويين، ولذلك استمر الصراع بين المسلمين والكفار، صراعاً دموياً فكرياً، حتىٰ إنّ معاوية بن أبي سفيان كوّن الشواتي والصوائف. واستمرت المعارك حامية الوطيس بين المسلمين والكفار في زمن معاوية وفي زمن عبد الملك بن مروان، حاصر مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية، وطلب منه عمر بن عبد العزيز الرجوع.

كانت دمشق عاصمة الأمويين مما جعلها أكثر استقراراً وأبعد عمّا كان يحدث في بعض الولايات الأخرىٰ من أحداث.

ثمّ نقلت العاصمة من بلاد الشام إلىٰ العراق في عهد الدولة العباسية، قد شهد هذا العصر فتناً وثورات بسبب تعثر دولة وقيام أخرىٰ، حيث زالت دولة الأمويين بمقتل آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد في معركة الزاب عام ١٣٢هـ واعتلىٰ العباسيون حكم البلاد.

واستمر الصراع الدموي الفكري بين المسلمين والروم في العصر العباسي، «فقد عمل العباسيّون علىٰ تقوية خط الحدود مع الروم ذلك الخط الذي أطلق عليه الثغور ـ كما أسلفنا ـ فعمروا الثغور وحصّنوها وشحنوها بالجند، وأَتَوْا بأناس من أنحاء الدولة الإسلامية وأحلّوهم في المدن التي كان الروم قد هجروها أيام الفتوحات الإسلامية الأولىٰ وأقطعوا لهم القطائع وأداروا عليهم الأرزاق حتىٰ أضحت منطقة الثغور تعج بالأهلين»[1].

استمر الصراع بين الطرفين المتنازعين فقد هجم الروم علىٰ الثغور فأغاروا علىٰ ملطية سنة ١٣٣هـ ولم يقوَ أهلها علىٰ دفعهم فسلموا لهم البلد علىٰ الأمان، فهدمه الروم حيث لا أمان لهم، فلما فرغ العباسيون من مشكلاتهم الداخلية زمن المنصور، وجهوا نظرهم صوب الثغور، فعادوا إلىٰ نظام الصوائف والشواتي، ذلك النظام الذي عمل به معاوية، وكان قد توقف منذ أخريات الدولة الأموية وكان أهم تلك الصوائف التي كان يقودها العباس بن محمد عندما استطاع أن يقتل قائد جند أرمينية، وأن يأسر اثنين وأربعين ضابطاً من رجاله.

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١١.

الصراع العسكري بين المسلمين والروم

في القرن الرابع الهجري

لم يخمد أوار الصراع بين المسلمين والروم في العصر العباسي ولم تنطفىء ناره، وإنما زاد تضرّماً واستعاراً، وقد تجلّىٰ الصراع في سلسلةِ جبال طوروس ذاتِ الحصونِ المنيعة التي ٱستطاع العباسيّونَ أنْ يستولوا عليها بعد حروبٍ ضارية، تجلّت فيها البطولة، وقدروا علىٰ النفاذ إلىٰ داخل بلاد الروم. وحطّوا علىٰ خليج البسفور غير مرة.

وفي عهد الخليفة المهدي دخل الصراع دوره الحاسم، حين أقدمَت الإمبراطورة «إيريني» سنة ١٦٣هـ[١] علىٰ إرسال جيش أغار علىٰ «مَرْعَش» فأحرقها ووضع السيف في رقاب أهلها. ولم يدر بخلد «إيريني» عندما أقدمت علىٰ هذا الفعل أنها ستفتح سلسلة من الصراع الدموي بين الدولتين، وأنها سَتُؤجِجُ نارَ الحِقْدِ في النفوس وكان ردّ المهدي حملة قوية قام بها ولدُهُ الرشيد، حيث حاصر قلعة «صَمالو»[٢] وأقام عليها ثمانية وثلاثين يوماً.

ولما تولىٰ الرشيد خالت «إيريني» أنه يمكنها أن تَنْقُضَ العهد الذي كان مع المهدي، فنقضت الاتفاق سنة ١٦٨هـ[٣]، وكان الردّ عليها سيلاً من الصوائف، ونهض الخليفة للجهاد، فدخل حِصْنَ الصّفْصافِ، وبعث أسطولاً هزم أسطول الروم، فسارعت الإمبراطورة إلىٰ دفع الجزية مرغمة.

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠ ص١٤٥.

(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٤-١٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص١٦٧.
الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص١٥٠.

عزم نقفور أن يعجمَ عودَ الرشيدِ وخالَ أنه يقوىٰ علىٰ كسب انتصار علىٰ المسلمين، فكتب رسالةً إلىٰ الرّشيد سنة ١٨٧هـ[١] مفعمة بالصلف والغرور، طلب فيها جميع أموال الجزية التي دفعتها الإمبراطورة له، حيث قال في رسالته: «من نقفور ملك الروم إلىٰ هارون ملك العرب. أما بعد، فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحَمْل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابي فاردد ما حَمَلَتْهُ إليك من الأموال، وآفتد نفسك به، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ هارون كتابه، أخذهُ الغضبُ الشديد، حتّىٰ لم يتمكن أحد أن ينظرَ إليه، ولا يستطيع مخاطبته، ثم كتب علىٰ ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. من هارون الرشيد ـ أمير المؤمنين ـ إلىٰ نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه. والسلام».

ثم شَخَصَ مِنْ يومه شطر الثّغور، فأناخَ علىٰ باب «هرقلة» ففتحها واصطفىٰ ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة علىٰ خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجاب الرشيد إلىٰ ذلك.

توفي الرشيد سنة ١٩٣هـ، فتولىٰ الخلافة من بعده ولده المأمون الذي نهض إلىٰ الثّغور سنة ٢١٥هـ، فحاصر حصن «قرّه»[٢] وفتحه عنوة وأمر بهدمه.

وفي سنة ٢١٧هـ أتم المأمون فتح حصن «لُؤلُؤة»[٣] الذي ظل حتىٰ هذا التاريخ شوكة في جَنْبِ المسلمين. لما يتمتع به من موقع حصين، وفي سنة ٢١٨هـ، تولىٰ الخلافة المعتصم.

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص١٩٤.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص٣٠٨.
نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٩.
(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٩.
(٣) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٧١.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص٦٢٨.
نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢١.

آثر المعتصم أن يفرغ من أمر بابك الخُرَّمي قبل أن يتوجهَ لصراع الروم. فأخذ يُشَدِّدُ عليه الحملات، حتىٰ بدأت الأرض تَميدُ من تَحْتِ بابك وأخذ رجاله ينجون بأنفسهم ويتوجهون إلىٰ بلاد الروم.

ولما أيقن بابك أنّ نهايته قد قربت بعث إلىٰ «توفيل» يُزَيّنُ له الإغارة علىٰ الثّغور، ويغريه بانشغال المسلمين به، وكأنّ توفيل كان في أنتظار هذه الفرصة، فأغار علىٰ «زبطرة» سنة ٢٢٣هـ[١] وأوقع ملك الروم بأهلها وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقاً عظيماً من المسلمين وأسر منهم عدداً لا يحصىٰ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات. ومثّل بمن وقع في أسره من المسلمين. فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل عيونهم. بعد ذلك عاد إلىٰ القسطنطينية وهو يسوق العذارىٰ والصبيان، فأقيمت لعودته الاحتفالات، وراح الناس ينثرون عليه الزهر.

خرج أهل الثغور إلىٰ المعتصم صارخين، واستغاثوا في المساجد والديار، فخرج الخليفة نافراً عليه دراعة من الصوف بيضاء، وقد تعمّم بعمامة الغزاة، وأرسل جيشاً بقيادة «عجيف بن عنبسة» لمساعدة الثغور، فقابل «توفيل» بجوار «خرشنة» ولكن القوة المسلمة قد أبيد معظمها عندئذ، وبعد أن فرغ المعتصم من بابك، أعدّ جيشاً لم يعدّه أحد من الخلفاء وسار يقود هذا الجيش الجرار. قاصداً عمورية[٢] مسقط رأس «توفيل» ومعقل الروم الحصين.

وعندما بلغ المعتصم الثّغور، أفرد جيشاً بقيادة الأفشين، وأدخله من درب الحدث بينما سار هو وبقية الجيش ودخلوا من درب السلامة، وأسقط في يد

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٨٥.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٦ ص٤٧٩.

(٢) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٨٦-٢٨٧.
ابن الأثير: التكامل في التاريخ جـ٦ ص٤٨٠.
المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص٣٥٣.

«توفيل»، ثم تخير ملاقاة الأفشين، فدارت بينهما رحىٰ معركة حامية في دازيمون علىٰ نهر أريس وكانت الأمطار تتساقط بغزارة، وكان الضباب يُغَلّفُ جوَّ المعركة فيضفي عليها مزيداً من الهول، ودارت الدائرة علىٰ توفيل، فأسلم جواده للريح وتفرق جنده، وفرّوا لا يدرون أين تقودهم خطاهم.

ووصلت إلىٰ أنقرة[1] أنباء هزيمة «توفيل» فأخلاها قاطنوها وطفقوا ينشدون مأوىٰ آخر غير مدينتهم التي فرّ حماتها، ولما التقىٰ المعتصم بالأفشين فيها كانت خالية تماماً.

توجه المعتصم إلىٰ عمورية، فحاصرها حصاراً شديداً، وأخذت المجانيق تدك أسوارها حتىٰ سقطت، فأسر المعتصم قادة الروم في عمورية، وكان منهم القائد «ياطس» والبطريق «توفيل» والقائد «تيودور» والقائد «يازوئيس» والرئيس «كالستوس ميلسينيوس»[2] وفي فتح عمورية قال الشاعر أبو تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعبِ

وبوفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ نودع عصر الخلفاء الأقوياء من بني العباس، الذين كانوا يَنْهضون بالقتال، وندخل في عصر جديد، أصبح فيه عبء حماية الثغور ملقىً علىٰ كاهل الولاة، فهم الذين يقاتلون الروم، وهم قادة الصوائف والشواتي، وهم الذين يدفعون الروم عندما يغيرون. أما الخلفاء فقد انشغلوا للذائذ الحياة وعكفوا عليها.

والواقع أن عوامل الضعف قد بدأت تَنْخَر في جسم دولة الخلافة منذ بداية القرن الثالث الهجري[3] وبالتحديد عندما أقدم المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) علىٰ إدخال العنصر التركي ليضرب به العنصر الفارسي والعربي، وبذلك أشعل فتيل التنافس بين هذه العناصر الثلاثة، وأخيراً سيطر العنصر التركي علىٰ الموقف

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص٢٣.

(٣) أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص١٦٧.

واستولىٰ الجند الأتراك بما عرفوا من جفاء وغلظة علىٰ زمام الأمور في الدولة، وسيطروا علىٰ الخلفاء، وأخذوا يتدخلون في تعيين المناصب العليا في الدولة، ومن بينها الوزراء والكتاب، ووصل بهم الأمر في بداية القرن الرابع الهجري إلىٰ التدخل في تعيين الخلفاء وقتلهم وسمل عيونهم إذا اقتضىٰ الأمر، فساعد ذلك علىٰ إضعاف السلطة المركزية.

في بداية هذه الفترة، كان أمراء الثغور يقوون علىٰ الإغارة علىٰ الروم والنيل منهم، ففي عهد الواثق والمتوكل، كان علىٰ الثغور أمراء أقوياء كأبي سعيد الثغري، وعلي بن يحيى الأرمني، وعمر بن الأقطع، فكانت صوائف أبي سعيد تصل الخليج، وكانت حملات الأرمني تبلغ البسفور، وقيل: إنّه غزا ألف قرية، وكانت غزوات ابن الأقطع تصل إلىٰ البحر الأسود، وقيل: إنه فتح مدينة سمسون علىٰ البحر الأسود وساءه أن يُوقِفَ البحر سيره، فأمَرَ بِضَرْبِهِ[1].

وفي سنة ٢٤٩هـ، التقىٰ جمع من المسلمين وخلق من الروم بالقرب من ملطية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل الأمير ابن الأقطع وعلي بن يحيىٰ الأرمني.

ومنذ عهد المستعين بدأ الوهن يدب في أوصال الثغور الجزرية، ولم نعد نسمع عن أمراء لها يقومون بغزو الروم، بل أصبح أمر الدفاع في يد أهل الثغور، وأضحوا وجهاً لوجه أمام الروم الذين احتلوا مركز القوة زمن الإمبراطور «باسيل» فدخلوا زبطرة وسُمَيْساط وأشرفوا علىٰ مَلَطْيَةَ ولكن الثغور الشامية كانت أحسن من الثغور الجزرية، والفضل في هذا يعود إلىٰ مدينة طَرْسوس التي ظلت حامية للثغور متخذة موقف الهجوم في البر والبحر، وفي سنة ٢٦٤هـ سقط حِصْنُ لؤلؤة الحصين بيد الروم عندما عين عليه فتى تركي غرّ اسمه «أماجور بن طرخان» فأساء السيرة فيها، ومنع الناس عطاياهم، فكتبوا إلىٰ أهل طرسوس يشكون إليهم

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٤.
ابن الأثير: التكامل في التاريخ جـ٧ حوادث ٢٦٣هـ.

حالهم، فجمعوا لهم مبلغاً من المال احتجبه أماجور لنفسه، وحرم أهل القلعة منه فلم يجدوا بدا من تسليمها إلىٰ الروم[1].

تسلم أحمد بن طولون زمام الثغور الشامية بأمر من الخليفة المعتمد سنة ٢٦٤هـ، وكانت نيته أن يواجه الروم، ولكنه بذل في قتال الأمراء المحليين من الجهد أكثر مما بذله في صراع الروم، ومع هذا فإننا نسمع عن انتصارات له علىٰ الروم، حتىٰ إن الإمبراطور «باسيل» قد بعث إليه يسأله الهدنة (يذكر صاحب المغرب أن ابن طولون قد رفض الهدنة، وطلب من عامله علىٰ الثغور أن يشيد حصوناً جديدة في الثغور، وأن يقويها لأن من الخسران المبين أن تكون مدة الهدنة مريحة للروم مخسرة للمسلمين)[2].

وقد تحدث التاريخ عن أبطال مثل: يا زمان الخادم، طغج بن جنى، وسيما الطويل، ومؤنس المظفر، وبشر الخادم.

وفي سنة ٣٠٢هـ[3] غزا بشر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح فيها وغنم وسبىٰ وأسر مائة وخمسين بطريقاً.

وفي سنة ٣٠٣هـ[4] أغارت الروم علىٰ الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرىٰ علىٰ الناس أمر عظيم.

وفي سنة ٣٠٤هـ[5] سار مؤنس المظفر إلىٰ بلاد الروم، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة من الروم، وعتب عليه أهل الثغور وقالوا: لو شاء لَفَعَلَ أكثر مِنْ هذا.

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٤.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٧ حوادث سنة ٢٦٤هـ.
(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٩٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص٩٥.
(٥) المصدر نفسه جـ ٨ ص١٠٦.

لقد أدىٰ تدخل الخلفاء العباسيين في الثغور الشامية إلىٰ إضعافها، وإنه لمن العجب العجاب أن يقوم الخليفة المعتضد بإحراق جميع المراكب الحربية، التي كان أهل طرسوس يغزون الروم بها.

يقول الطبري: «كان فيها نحواً من خمسين مركباً قد أُنفق عليها أموال جليلة لا يعمل مثلها في هذا الوقت، فأحرقت، فأضرّ ذلك بالمسلمين، فكسر في أعضادهم وقوىٰ بها الروم، وأمنوا أن يغزوا في البحر»[1].

وعندما أقبل القرن الرابع الهجري، كانت الثغور الجزرية في غاية الوهن، حتىٰ إن الإمبراطور قسطنطين السابع قد بعث إلىٰ أهلها يأمرهم بحمل الخراج إليه قائلاً لهم: «إنني صحّ عندي ضعف ولاتكم»[2] ولما لم ينفذوا ما أمر به، دخل ملطية سنة ٣١٤هـ فخربها وسبىٰ منها ونهب، وأقام فيها ستة عشر يوماً، وجاء أهلها إلىٰ بغداد يستنجدون الخليفة عليه، فلم يغاثوا.

وفي سنة ٣١٥هـ[3]، قصد الروم سُمَيْساط فدخلوها وغنموا جميع ما فيها من مال وسلاح، وضربوا في الجامع بالناقوس أوقات الصلاة، ثم إن المسلمين خرجوا في أثر الروم فغنموا منهم غنيمة عظيمة.

وفي سنة ٣١٦هـ أصبحت الثغور البكرية بأيدي الروم.

وفي سنة ٣١٧هـ[4] ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم، فدخلوا «آرزن» و«مَلَطْيَةَ» و«ميافارقين» و«آمِد» وعزموا علىٰ طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر عن نصرهم، وأرسلوا إلىٰ بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويطلبون العساكر لتمنع عنهم، فلم يحصلوا علىٰ فائدة، بعد

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص٢٠٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص١٦٠.

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص١٦٩.

(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص٢٩٦.

ذلك انسحب الروم بعد أن سلّم إليهم المنديل المقدس الموجود في إحدىٰ كنائس «الرها».

وفي سنة ٣٢٢هـ[١] سار الدُّمُسْتُقُ قرقاش في خمسين ألفاً من الروم فنزل ملطية وحاصرها مدة طويلة وهلك أكثر أهلها بالجوع وضرب خيمتين، علىٰ إحداهما صليب، وقال: من أراد النصرانية انحاز إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب ليرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلىٰ الخيمة الأخرىٰ وله الأمان علىٰ نفسه، ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم، وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالأمان.

في غمار هذه الهزائم المتلاحقة ظهر سيف الدولة الحمداني، فكأن القدر قد ساقه لنجدة الثغور المهيضة الجناح.

من هذا نرىٰ أنه قد ظهر في القرن الرابع الهجري شخصية إسلامية فذة أخذت علىٰ عاتقها الصراع مع الروم، هذه الشخصية هي «سيف الدولة الحمداني» الذي حمل حملات صادقة عليهم، وحط علىٰ البسفور، فسيف الدولة قد خبر الروم قبل أن يؤسس دولة بني حمدان في حلب سنة ٣٣٣هـ إذ قاتلهم سنة ٣٢٤هـ ولم يكن النجاح حليفه، وفي سنة ٣٢٦هـ استطاع الأمير الحمداني أن يهزم الروم، وفي سنة ٣٢٨هـ دخل بلاد الروم وهدم حصوناً كثيرة.

* * *

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص١٦٩.

دور الدولة الحمدانية في الصراع مع الروم

قبل أن أبدأ الحديث عن المعارك التي خاضها سيف الدولة الحمداني ضد الروم البيزنطيين، لا بد لي أن أعرّج قليلاً علىٰ الحمدانيين الذين ينتسب إليهم الأمير المجاهد سيف الدولة الحمداني.

الحمدانيون

ظهر الحمدانيون في أواخر القرن الثالث الهجري، وفي القرن الرابع استطاعوا أنْ يُؤَسِّسوا دولةً احْتَلّتْ مكانةً مرموقةً في العالم الإسلامي آنذاك، وبخاصة في تلك الظروف التي أُبْعِدَ فيها العربَ عن الحكم، وأصبح الحكم الفعلي للأتراك والديلم والفرس، وقام بنو حمدان بدورهم البارز والمشرّف في الوقوف في وجه البيزنطيين، والحفاظ علىٰ البلاد الإسلامية من خطرهم الداهم.

وكان لهم دورهم في الحركة الأدبية والفكرية في تلك الفترة وبخاصة في بلاط الأمير سيف الدولة، وإذا كان هذا شأنهم فيجدر بنا قبل أن نلج في موضوعنا، أن نتعرف إلىٰ هذه الاسرة قبل أن تؤسّس ملكها، فمن هم الحمدانيون؟ وإلىٰ من ينتسبون؟ ومتىٰ ظهروا؟ وأين؟ وكيف وصلوا إلىٰ ما حدّثتنا عنه كتب الأدب والتاريخ؟

تنتسب هذه الأسرة إلىٰ قبيلة «تَغْلِب» تلك القبيلة التي كانت تُعَدّ من أكبر القبائل شأْناً في بلاد العرب منذ الجاهلية، حتىٰ قالوا: (لو أبطأ الإسلام قليلاً، لأكلت بنو تغلب الناس)[1]، وكان بنو تغلب من نصارىٰ العرب في الجاهلية، وكان موطنهم في الجزيرة وديار ربيعة، ثم ارتحلوا مع هرقل إلىٰ بلاد الروم، ثم رجعوا إلىٰ بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية، فقالوا: (يا

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

أمير المؤمنين: لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة، ففعل)[1].

كان منهم في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل المغمر، وآل حمدون بن الحدث بن لقمان بن أسد[2]، وقد ظلت تغلب تقوم بدور كبير في تاريخ الجزيرة طوال التاريخ الإسلامي، حتىٰ استطاع بنو حمدان أن ينشئوا دولتهم إبّان القرن الرابع الهجري.

ومن الجزيرة انتقل حمدان بن حمدون إلىٰ الموصل، وكان حمدان جدّ الأمراء الحمدانيّين ربّ قبيلة تنظر إليه بقية القبائل بالاحترام والإجلال.

أنجبت هذه الأسرة عدّة أولاد نشأوا نشأة عصامية وألقوا بأنفسهم في ميادين المغامرة والحرب، فانتصروا وخذلوا وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة، ولا تعرف الهدوء والسلم إلا لماما، وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية وغروب شمسها، وشهد الحمدانيون الأحداث التي هزّت الدولة العباسية هزّة انتهتْ إلىٰ انفراطِ عقدها وظهرت دويلات وإمارات مستقلة علىٰ يد الأتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية.

شهد الحمدانيون تقلّص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الأعاجم بشكل مُزْرٍ، فرأَوْا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء، وأن يصونوا التراث العربي الإسلامي وأن يذودوا ما استطاعوا هجمات الروم عن الثغور الإسلامية، فكان دفاعهم عن الإسلام مجيداً، لقد ورث الحمدانيون أمجادهم الأدبية والحربية عن تغلب، فاعتزّوا بنسبهم أشدّ الاعتزاز وتغنىٰ به شعراؤهم، فأبو فراس يفتخر بنسبه التغلبي مرّة والحمداني مرّات ومرّات، ويرىٰ عشيرته خير البريّة، يقول:

إنـي امـرؤ ببنـي حمـدان مفتخـر خيـر البـريـة أجـداداً وأسـلافـاً[3]

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

(٢) سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٣١.
أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص٤.

(٣) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٩.

ويشير ثانية إلىٰ بني حمدان وانتمائهم إلىٰ عدنان في نسبهم فيقول:

وإذا فخرت فخرت بالشّمّ الأُلىٰ شادوا المكارم من بني حمدان
نحن الملوك بنو الملوك أولو العلا ومعادن السادات من عدنان[1]

أمّا حمدان بن حمدون جد هذه الأسرة العربية النجار فقد انحدر من هذه القبيلة، وكان أول ظهوره علىٰ مسرح الحرب والسياسة في أواخر القرن الثالث الهجري، عندما استولىٰ علىٰ قلعة ماردين وأعلن استقلاله بها سنة ٢٧٤هـ عن طريق التحالف مع الخوارج، ممثلين في هارون الشاري، وفي سنة ٢٨١هـ خرج المعتضد الخرجة الثانية لمعاقبة حمدان بن حمدون، فقد بلغه أنّ حمدان مال إلىٰ هارون الشاري ودعا له[2] فهرب حمدان تاركاً الأمر لابنه الحسين وفتح المعتضد القلعة وأمر بنقل ما فيها وهدمها، ثم وجه خلف حمدان فظفر به بعد عودته إلىٰ بغداد، حيث قصد حمدان خيمة إسحاق بن أيوب وهو مع المعتضد، مستجيراً، فأحضره هذا إلىٰ المعتضد حيث أمر بالاحتفاظ به، وبقي حمدانُ مقيداً إلىٰ أنْ تغلَّب ابنه الحسين علىٰ هارون وذلك أنه لمّا استفحل أمر هارون وغلب علىٰ الأعمال وهزم جيوش السلطان، أشير علىٰ الخليفة بإنفاذ الحسين بن حمدان للقضاء عليه، فتقدّم الحسين واستطاع أن يوقعَ بالشّاري ويقتل من رجاله ويأسره بعد حرب عظيمة كانت الدائرة فيها للحسين بن حمدان، فأتى به المعتضد أسيراً بغير أمان، فخلع المعتضد علىٰ الحسين خلعاً شرفه بها، وطوّقه بطوق من ذهب وخلع علىٰ جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله[3]، وقد حكّم الخليفة في ثلاث حوائج، فسأله الحسين إطلاق أبيه فأطلق، وإزالة الأتاوة علىٰ بني تغلب فأزيلت، وإثبات خمسمائة فارس منهم يضمّون إليه فأُثبتوا[4]، وقد تغنىٰ أبو فراس بعمل عمّه هذا حيث قال:

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٧ ص٤٦٦.
(٣) المصدر نفسه جـ٧ ص٤٧٧-٦٦٥.
(٤) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.

وأقبلَ بالشّاري يقادُ أمامه وللقيد في كلتا يديه ضفائر[1]

وتعرضت البلاد آنذاك لغارات القرامطة الذين ملأوا البلاد رُعْباً وقلقاً يعيثون في الأرض فساداً، يسفكونَ الدماء ويستبيحونَ الحرمات، وينهبونَ الأموال، ويقفون في طريق الحجّ، فعجم الخليفة كنانته فلم يجد أمرّ من الحسين عوداً، فوجّهه لمحاربتهم، فاستطاع أن يكسر شوكتهم ويأسر الكثير من رؤسائهم، وهكذا استفادت دولة الخلافة من قيام بني حمدان قوة عربية إسلامية في هذه المنطقة للقضاء علىٰ المناوئين لها.

واشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة، ففي سنة ٢٩١هـ يحدّثنا الطبري عن الوقعة بين أصحاب السلطة ومعهم الحسين بن حمدان ضدّ صاحب الشامة[2]، وفي سنة ٢٩٣هـ كتب إليه الخليفة بالعمل علىٰ اجتثاث أصولهم، وفي سنة ٢٩٤هـ كانت وقعة عظيمة بين أصحاب الحسين وجماعة من أصحاب (ذكرويه)[3] القرمطي، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر.

ويفتخر أبو فراس بصنع عمه فيقول:

وشن علىٰ ذي الخال خيلاً تناهبت سماوة كلب بينها وعراعر
أضقن عليه البيد، وهي فضافض وأضللنه عن شبله وهو خابر[4]

وهكذا برز الحسين بن حمدان قائداً مغواراً، قوى الشكيمة، فارتفعت منزلته عند الخليفة وغيره من أولي الأمر، لِما أظهرَهُ من شجاعة فائقة وانتصارات عظيمة.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ حوادث سنة ٢٩١.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص٥٣٠.
(٣) الطبري: تايخ الرسل والملوك جـ ٨ حوادث سنة ٢٩٤.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص٥٤٨-٥٤٩.
(٤) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.

وبلغ الأمر بالحسين أن يتدخل في شؤون الخلافة، ففي سنة ٢٩٦هـ كان التدبير يقع مع الحسين علىٰ إزالة المقتدر بالله، وتنصيب عبد الله بن المعتز مكانه ولكن المحاولة باءت بالفشل، وهرب الحسين إلىٰ الموصل، ولكنه عاد إلىٰ بغداد، وولاه المقتدر ديار بكر وربيعة سنة ٢٩٨هـ، وفي سنة ٣٠١هـ غزا الحسين الروم فورد كتاب من طرسوس يذكر فيه أنه فتح حصوناً كثيرة، وقتل من الروم خلقاً كثيراً، ولا غرو في ذلك، فقد سجل حمدان والده صَفْحةً خالدةً في تاريخِهِ وتاريخِ قَوْمِه، حيث تصدّىٰ لغزو الروم، فقيل إنه بنىٰ سوراً علىٰ مَلَطْيَة، وأنفق عليه سبعين ألف ديناراً، قال أبو فراس، قال سيف الدولة: دخلت ملطية أنا وعمي أبو العلاء سنة ٣١٣هـ، أو ٣١٨هـ فقرأت اسم جدي علىٰ سورها[١].

وفي سنة ٣٠٣هـ خالف الحسين[٢] وخرج عن طاعة السلطان رافضاً دفع المال المقرر عليه مقابل توليه ديار ربيعة، فسار إليه مؤنس الخادم، واستطاع أن يأسره وجميع أهله، وحبس الحسين في دار السلطان، وفي سنة ٣٠٦هـ توفي الحسين وقيل قتل بعد أن كان معظماً في الدول، وبعد أن حارب الطولونية، ثم القرامطة أيام المقتدر، وبعد أن حارب الروم، وقتل خلقاً منهم ثم خالف وعصىٰ إلىٰ أن قتل في سجنه ببغداد.

أما أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان فقد ولي الموصل سنة ٢٩٣هـ فكانت أول إمارة بني حمدان هناك. لقد كانت ولاية محفوفة بالزعازع والانقلابات، أي لم تكن ولاية مستقرة آمنة.

في سنة ٣٠١هـ[٣] حاول أبو الهيجاء مخالفة الخليفة، فسير إليه مؤنساً فلما علم بذلك أبو الهيجاء، قصد مؤنساً مستأمناً من تلقاء نفسه، فأعاده المقتدر إلىٰ ولايته.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي أبو فراس الحمداني ص٢١.

(٢) المرجع نفسه ص٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٧٦.

وفي سنة ٣١٤هـ ضمن أبو الهيجاء أعمال الخراج والضياع بالموصل وأعمالها[١] وأناب عنه ابنه الحسن، فكان عبد الله بن حمدان يتولىٰ الجميع وهو ببغداد، وابنه الحسن (ناصر الدولة) بالموصل.

وفي سنة ٣١٧هـ جرّده الخليفة، ممّا دفعه إلىٰ الاشتراك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر وتقليد القاهر مكانه، ولكن المحاولة باءت بالفشل فأعيد المقتدر وقتل أبو الهيجاء (عبد الله بن حمدان).

وفي سنة ٣١٨هـ[٢] عُزل الحسن بن عبد الله بن حمدان (ناصر الدولة) عن الموصل، ووليها عماه سعيد ونصر، وولي الحسن ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين.

وفي سنة ٣٢٣هـ قتل ناصر الدولة عمه أبا العلاء سعيداً والد أبي فراس الحمداني الشاعر، فعظم قتله علىٰ الراضي وأمر ابن مُقْلَة بالمسير إلىٰ الموصل ففعل، ورحل ناصر الدولة عن الموصل، ثم عاد إليها عن طريق الحيلة، وكتب إلىٰ الخليفة يسأله الصفح وضمان البلاد، فأجيب إلىٰ ذلك، واستقرت البلاد عليه[٣].

لقد عدّ الدكتور مصطفىٰ الشكعة سنة ٣٢٣هـ هي البداية الحقيقية لقيام الدولة الحمدانية بالموصل، ذلك أنّ الفترة السابقة كانت فترة قلاقل لم تثبت فيها الموصل بيد الحمدانيين، ولكنني لا أميل إلىٰ هذا الرأي لأنّ الدولة الحمدانية في الموصل لم تهدأ ولم تستقر بل بقيت تتعرض للمؤامرات من قبل الأعاجم طيلة حكم الحمدانيين لها، وأرىٰ أن عام ٢٩٢هـ هو بداية تأسيس الدولة الحمدانية.

وفي سنة ٣٣٠هـ استطاع الحسن بن عبد الله أن يقتل ابن رائق ـ أمير الأمراء ـ وأرسل ابن حمدان إلىٰ المتقّىٰ يعلمه أنّ ابن رائق أراد أن يغتاله، ففعل به ما فعل،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص٢١٧.

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص٣١٠.

فرد عليه المُتّقي ردّاً جميلاً وأمره بالمسير إليه، فسار ابن حمدان إلىٰ الخليفة، فخلع عليه ولقّبه (ناصر الدولة) ولقّب أخاه علي بن عبد الله (سيف الدولة) لأنه طرد البريديين من بغداد[1] ثم جعل ناصر الدولة أميراً للأمراء.

وأخيراً تُوِّجَت علاقة الحمدانيين مع الخليفة المتّقي بالله بزواج ابن الخليفة أبي منصور من ابنة ناصر الدولة (علوية) سنة ٣٣١هـ[2]. وقد عدّ الدكتور أحمد صالح فاعور هذا الزواج زواجاً سياسياً إذ كان الهدف منه تثبيت حكمهم عدا طمعهم بأن يكون أحد أحفادهم خليفة.

نرجع إلىٰ علي بن عبد الله (سيف الدولة) لقد كان سيف الدولة يحلم في تأسيس ملك، وكان ينظر إلىٰ بلاد الشام علىٰ أنها هي التي يجب أن تكون ذلك المكان، فذهب إلىٰ الموصل لمقابلة أخيه ناصر الدولة وشرح له ما عزم عليه وأخبره بأنه يريد مساعدته بالمال والرجال، وأعلمه أنّ ما يحققه من نصر أو فتح سيكون عزّة له، ولكن ناصر الدولة ردّ عليه رداً غير كريم، فحاول ثانية وكان جوابه أشدّ امتناعاً فطلب من زوجة أخيه التوسط لديه فطلبت منه التريِّث قليلاً حتىٰ يهدأ لأنها تعرف زوجها بأنه عنيد ومن الصعب أنْ يتراجع، وطلبت من سيف الدولة الإقامة في الموصل بضعة أيام لعلها تستطيع إقناعه[3]، ولم يقاطع سيف الدولة أخاه بل بقي يتردّد علىٰ مجلسه، لعله يستطيع أنْ يغيّر من موقف أخيه فيستجيب له، وفي يوم ورد علىٰ ناصر الدولة كتاب من بغداد، فلمّا قرأه تغيّرت ملامح وجهه وغضب غضباً شديداً فسأله سيف الدولة عن السبب، فأجاب بأن أبا عبد الله البريدي قتل أخاه أبا يوسف طمعاً في ماله، كما أنه استولىٰ علىٰ البصرة[4].

---

(١) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه ص٥٢.

(٣) ماريوس كنار: نخب تاريخية وأدبية ص٤٠٦.

(٤) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٦٢.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٤٠٩.

فأصاب سيف الدولة الهلع خوفاً من أنّ أخاه يشكّ فيه أو أن يحصل له كما حصل لأبي يوسف، فقرر ترك الأمر إلىٰ فرصة أخرىٰ، وخرج مسرعاً من الحضرة متذرّعاً بألم قد أصابه، وعاد إلىٰ معسكره الذي كان خارج الموصل، لكنّ ناصر الدولة أدرك ما دار بخلد أخيه، فأتبعه بغلامه (دنحا) حاملاً له رسالة جاء فيها: «إنك جئتني تلتمس العون فصادفت مني ضجراً، وأجبتك بالرفض، ثم علمت أنَّ الصواب معك، فكنتُ منتظراً أنْ تعاودني في المسألة فخرجت من غير معاودة ولا توديع، والآن إن شئت فأقم بسنجار أو بنصيبين فإني منفذ إليك ما التمست من المال والرجال لتسير إلىٰ الشام[1].

لقد سُرّ سيف الدولة لاستجابة أخيه له، وتحقّق بأن النصر سيكون حليفاً له فزالت عنه أحزانه وآلامه.

أما نبيلة إبراهيم[2] فإنها تقول: «أرسل سيف الدولة لأخيه ناصر الدولة، كي يعينه علىٰ الاستيلاء علىٰ ولاية فقال له ناصر الدولة: «الشام أمامك، وما فيه من أحد أن يمنعك منه» فابتدأ سيف الدولة في تنفيذ خطّته ودار القتال بينه وبين الإخشيد، ثم بدأت المفاوضات وصالحه الإخشيد علىٰ أن يترك له حلب وحمص وأنطاكية، ولم يكن هذا التصرف عجزاً من الإخشيد، ولكن الأخشيد رأىٰ أنَّ تَرْكَ ذلك لن يعودَ عليه بالضرر إن لم يكن فيه نفع له، وذلك لأنَّ سوريا لم تكن طريقاً تجاريّاً يضُمّ مصر، ولأن سوريا كانت ملجأ للثورات الفاطمية والعراقيّة، ولأن سوريا كانت مقابلة للبيزنطيين، فرأىٰ الإخشيد أنْ يترك سوريا لسيف الدولة وبالفعل استطاع أن يكوّن الدولة الحمدانية وتحسّنت العلاقة بين الإخشيد وسيف الدولة حيث تزوّج سيف الدولة بابنة أخ الإخشيد، وهكذا حقّق سيف الدولة حلمه بتكوين الدولة الحمدانية في حلب سنة ٣٣٣هـ.

---

(١) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٦٢.

(٢) نبيلة إبراهيم: روميات المتنبي ص٦٣.

درويش الجندي: الشعر في ظل سيف الدولة ص٥٥.

سيف الدولة الحمداني

وُلِدَ سيفُ الدولةِ علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان[1] سنة ٣٠٣هـ وفي رواية سنة ٣٠١هـ في (ميافارقين) أو مدينة الشهداء، أشهر مدن ديار بكر، وتشاء الأقدار أنْ تقترنَ ولادته بارتقاء أبيه إمارة الموصل وأرض الرافدين.

لم يكد سيف الدولة يبلغ العقد الأول من حياته حتىٰ أسلمه أبوه إلىٰ العلماء والحكماء يُدَرّبونه ويُلَقّنونه الحكمةَ وصنوفَ العلم، ويشبّ أميرنا ويصحب أخاه إلىٰ بعض الغزوات، ويظهر شجاعة نادرة، وإقداماً عظيماً، وصبراً علىٰ المكاره وإبلاء حسناً في خوض المعارك، ويذيع اسمه في الموصل وأطراف الجزيرة، ثم يسافر إلىٰ بغداد، وينعم بعطف الخليفة المقتدر بعد أن هزم البريديين سنة ٣٣٠هـ. وتزداد الأحاديث عن شجاعته ومغامرته ويشاهد عن كثب هذه الاضطرابات التي انتهت بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر فيزداد حنقا وثورة ووثوقاً من نفسه وإيماناً بالله.

ولو أنّ غير سيف الدولة ولد في هذا العصر الذي كان يَعُجُّ بالدسائس والاضطرابات، وقد ضَرَبَت الفوضىٰ رِواقَها في كل بُقْعَةٍ إسلامية، وأصبح الخليفة ألعوبة بأيدي الأعاجم، ولو أنّ غير سيف الدولة جابه هذه الاضطرابات والأحداث لابتلعته وطوت اسمه، دون أن تفسحَ له الصُّحف ولو سطراً واحداً ولكن الأمير سيف الدولة عرف كيف يشُقّ لنفسه طريق المجد، وعرف كيف يقوىٰ علىٰ الاضطرابات، وكيف يوطّد دعائم حكمه.

لذلك ينصرف الذهن عند الحديث عن الحمدانيين إلىٰ سيف الدولة مباشرة؛ لشهرته التي ترجع لدوره البارز في التاريخ، فقد سطّر صفحات مجد خالدة في

---

(١) قال المتنبي في الديوان الجزء الأول ص٢٧٧:

وأنت أبو الهيجا ابنُ حمدانَ يابْنَهُ ... تشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ

وحمدانُ حمدونُ وحمدونُ حارثٌ ... وحارِثُ لقمانٌ ولقمانُ راشدُ

وقوفه أمام الروم، وفي خلقه حركة أدبية عظيمة في حلب، التي أصبحت منارة إشعاع فكري وأدبي في القرن الرابع الهجري، حيث ضمّ بلاطه مشاهير الأدباء والشعراء والعلماء والفلاسفة، وبهذا تبوّأ مكانة يستحقّها في تاريخ الإسلام.

لقد ارتبط تاريخ حلب ارتباطاً وثيقاً بسيرته، وقد أحبّها، وكان يفخر بها فيقول: حلب معقلي، والمتنبي شاعري[1].

لقد كان سيف الدولة (المشهور بسيادة بني حمدان وهو واسطة قلادتهم وهو غُرّة الزمان وعماد الإسلام ومَنْ به سِداد الثُّغور وسداد الأمور، وكانت وقائعُه في عصاة العرب تَكِفُّ بأسسها وتَنْزَعُ لباسَها وتفلّ أنيابها وتَذِلُّ صعابها، وغزواته تُدْرك من طاغية الروم الثآر، وتَحْسم شرّهم المثار، وتُحْسِنُ في الإسلام الآثار، وكان حضرته مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومهبط الرجال وموسم الأدباء وحَلْبَةُ الشعراء[2].

ويقال: إنه لم يجتمع قَطّ بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ ما اجتمع ببابه من شيوخ في الشعر ونجوم الدهر، وكان أديباً شاعراً محباً لمجيد لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به.

إنّ سيف الدولة قد بنىٰ لنفسه مجداً عريضاً لا يفنىٰ علىٰ مرّ الغداة وكرّ العشيّ بتلك البطولة العارمة التي مجّدها شعراؤه، وسطرها التاريخ بمداد من الثناء والإعجاب، إذ قضىٰ ردحاً من الزمان يدفع عن العروبة وحوزة المسلمين شبح الروم البغيض، لم يثنه عن عزمه ما يمتاز به العدوّ العنيد من وفرة العدد، والعتاد وقعود سائر الإمارات العربية التي كانت تحت ظلّ الأعاجم من نصرة هذا الفتىٰ المجاهد العظيم، والوقوف إلىٰ جانبه في الذود عن الإسلام، كما بنىٰ ذلك المجد بتلك الأريحية السمحة التي وجد العِلْم والأدب في رحابها ظلاً ظليلاً ومقاماً كريماً.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٢٧-٢٨.

يقول بروكلمان: «ولئن كان سيف الدولة يدين بما تمّ له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم، فليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه علىٰ العلوم والفنون ورعايته لها»[1].

لم تكن فروسية سيف الدولة وحبّه العميق للأدب فحسب موضع إعجاب المؤرّخين المسلمين، بل هزّت مناقبه وعبقريته المغامرة في الحرب مشاعر مؤرخي الإفرنج فرأىٰ فيه بعضهم البطل والقائد، فخصّوه بالكثير من بحوثهم.

فهذا المستشرق غوستاف سيشلمبرجر يقول: «شغل سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر الميلادي فما أن تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي أو قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتىٰ يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذاب، الذي حارب الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي، وكان نصفهم الآخر من أمراء الحواضر»[2].

لقد أقسم مؤرخ بيزنطي زار حلب في عصر سيف الدولة أن قصور الخلفاء في بغداد وقصور ملوك الروم في القسطنطينية كانت أقلّ بهاء من قصور سيف الدولة[3].

لقد احتلت الأسرة الحمدانية مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي في الميدانين السياسي والأدبي علىٰ يد سيف الدولة، الذي سطّر صفحاتٍ خالدةً بوقوفه أمام الروم، وفي خَلْقِ حركة أدبية عظيمة في حلب، التي أصبحت منارة إشعاع فكري وأدبي في القرن الرابع الهجري.

والدولة الحمدانية بحلب كانت أول إمارة عربية صميمة تنشأ في عصر إسلامي، بعد أنْ تغلغلَ الأعاجم في الدولة الإسلامية وسيطروا علىٰ سياسة الدولة العباسية، وكان لهم الأمر والنهي، فكانت الدولة الحمدانية، والحال كذلك، دولة

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ٢ ص٩١.

(٢) سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٢٧.

(٣) المرجع نفسه ص٢٧.

غريبة في بابها، وحيدة من نوعها فبظهورها ظهر أول نفوذ للعرب بعد أنْ وُئِد هذا النفوذ منذ نهاية الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ[١].

ففي عهد سيف الدولة الحمداني قامت الدولة بنشاطات مختلفة، فقد كانت ذات نشاط حربي استطاع أن يعيدَ للدولة الإسلامية هيبتها ومركزها وسياستها علىٰ حدودها، واستطاعت أن تدقَّ أبواب العواصم والثغور الرومية دقاً عنيفاً متواصلاً في فترات متقاربة، ففزع الروم وأُصيبت دولتهم بالصداع، وزلزت أراضيهم تحت سنابك خيل المجاهدين.

لقد استطاع سيف الدولة أنْ يقيم دولة في حلب، واستطاع أنْ يوطد أركانها ويحولها إلىٰ سد منيع أمام خطرِ البيزنطيين، ومن ثم غزوهم في عقر دارهم، فقد رَوَتْ كتبُ التاريخ (أنَّ سيف الدولة غزاها ما يزيد علىٰ أربعين غزوة، كان النجاح حليفه في معظمها، وقد تغنىٰ بتلك الانتصارات والأمجاد الشعراء»)[٢].

إنّ شهرة سيف الدولة استندت إلىٰ مقارعة الروم وحماية الثغور وإذكاء روح الجهاد في سبيل الله لترفع راية الإسلام خفّاقة فَوقَ الثغور الإسلامية: يقول شوقي ضيف: «إن سيف الدولة أعظم بطل عربي تألق نجمه في سماء الحروب الرومية، إذْ تحولَ بجنوده إلىٰ ما يشبه سدّاً ضخماً يصدّ سيول الروم، بل قد تحول إلىٰ ما يشبه صخرة عاتية تتحطم عليها غاراتهم وحملاتهم، بل إنَّه حوّل ديارهم وأوديتهم إلىٰ حرائق تسيل من تحتها دماؤهم المسفوحة، وكأنما تجسدت في نفسه البطولة الإسلامية بكل أمجادها الحربية»[٣].

لم يكن نشاط الدولة الحمدانية في زمن هذا الأمير المجاهد نشاطاً سياسياً حربياً فحسب، بل كان نشاطها الأدبي رائعاً أيضاً، فقد ازدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الأدب والفكر والفن، تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص١.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٤٧.

(٣) شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي ص٧٠.

بغداد في أيام عزّهم، فقد ضمّت تلك الحلقات الفيلسوف الشهير البارع أبا نصر الفارابي، ومؤرخ الأدب العربي أبا الفرج الأصبهاني، والواعظ البليغ ابن نباتة، والعالم اللغوي ابن خالويه، والنحوي ابن جني، والشاعر الفارس أبا فراس وفوق هؤلاء الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبي وكان سيف الدولة واسطة قلادتهم وغرّة الزمان، ودعامة الإسلام، وكان به سداد الثغور وسداد الأمور[1].

لقد كان سيف الدولة بطلاً مظفّراً، وقائداً موهوباً متصفاً بالأخلاق العربية الكريمة، متّسماً بالجرأة والشجاعة، فالتقىٰ بالجيوش البيزنطية الكثيفة المجهّزة أحسن تجهيز، تحت قيادة أبرع وأعتىٰ القادة البيزنطيين من أمثال (برداس فوكاس) و(نيسفور أو نقفور فوكاس)، فكان يصدّهم وينتصر عليهم ويوقع بهم شر الهزائم، ولم يقف الأمر بسيف الدولة عند حد هذه الجيوش المعتدية الغازية وحسب، بل إنه نقل المعارك إلىٰ أرض الروم وأخذ يخرج للغزو مرتين أو أكثر كل عام، فيقتلع الحصون ويحتل المدن ويعود بالأسلاب والغنائم والسبايا، فأوقع الرعب في قلوب الروم، وأمّن حدود إمارته من ناحية وثبّت حدود الدولة الإسلامية من ناحية ثانية، وألقىٰ علىٰ مهاجمي ديار العرب دروساً قاسية بما أوقع بهم من هزائم، وبما قتل من جنودهم، وبما أسر من بطارقتهم وقادتهم، حتىٰ إن أحد قادتهم الكبار اضطر بعد معركة كبرىٰ هزم فيها عشرات الألوف من الجنود الذين جندهم من مختلف البلاد الأوروبية والآسيوية وهو (برداس فوكاس) أن يترهب ويدخل الدير نتيجة الهزائم المتوالية التي أوقعها به المجاهدون المسلمون تحت قيادة الأمير المجاهد سَيْف الدولة، الأمر الذي كان مادة طريفة لشعراء العرب فصوّروا تلك الحادثة تصويراً طريفاً.

لقد ذاع اسم سيف الدولة في العالم الإسلامي، لا علىٰ أنَّه أمير حلب فحسب، بل علىٰ أنه بطل الجهاد ضد البيزنطيين، وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوىٰ خصم وأشرف بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية.

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ص١٠٥.
فيليب حتي: تاريخ سورية جـ١ ص١٩٨.

لا نريد أنْ نؤرخَ بالتفصيل لتلك المعارك التي دارت رحاها بين سيف الدولة والدولة البيزنطية، ولكن كل ما نريد أن نبيّنه لا يعدو الإلمام بتلك المعارك بصورة عامة، لنرىٰ أثرها في شعر الجهاد عند المتنبي.

قسّم كنار أعمال سيف الدولة في حلب إلىٰ أقسام ثلاثة: حروبه للبيزنطيين، حروبه مع القبائل العربية، وحروبه لعمّاله الذين حاولوا الاستقلال[1].

أما حروبه مع الروم فيمكن تقسيمها إلىٰ أربع فترات:

الفترة الأولى: وقعت فيها غزوات كانت أولاها سنة ٣٢٤هـ[2] ولم يكن النجاح فيها حليفاً لسيف الدولة، حيث سار الدمستق بجيوش الروم إلىٰ آمد وسميساط في عهد الراضي، فسار سيف الدولة إلىٰ آمد وحاربه وانتهت الحرب بأن مَلَكَ الدمستق سميساط.

وكان ثانيها سنة ٣٢٦هـ[3] وفيها استطاع الأمير الحمداني أن يهزم الروم ويأسر منهم سبعين بطريقاً، وأن يأخذ سرير الدمستق وكرسيه.

وفي سنة ٣٢٨هـ[4] كان لسيف الدولة غزوة ثالثة، استطاع فيها أنْ يدخل بلاد الروم ويهدم لهم حصوناً كثيرة، ويفتح قلاعاً منيعة ويطأ مواطيء لم يطأها أحد من المسلمين قبله، فقد سار حتىٰ نزل قالونيا وأحرقَ رساتيقها، وسلب ضياعها وقتل من الروم مقتلة عظيمة.

الفترة الثانية: لقد كانت حروب سيف الدولة في هذه الفترة بعد قيام الدولة الحمدانية في حلب سنة ٣٣٣هـ، حيث كانت الإمبراطورية البيزنطية تغير علىٰ الأراضي الإسلامية من آن لآخر دون أنْ يتعرضَ لها أحد، وعندما وَطِئَتْ قدم الأمير سيف الدولة بحلب، شعرت الإمبراطورية البيزنطية بالخطر الذي قد يسببه

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٧٤.

(٢) المرجع نفسه ص٧٥.

(٣) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٣١.

(٤) المرجع نفسه ص٣١.

هذا الأمير الطموح، ورأت أنَّ إنشاء دولة جديدة علىٰ حدودها سيكون له الأثر السيء، فبادرت بالهجوم علىٰ الثغور الإسلامية منتهزة حرب الأمير سيف الدولة مع الأخشيديين سنة ٣٣٣هـ، الذين جاؤوا لاسترداد حلب، فأبت نفس الأمير المجاهد سيف الدولة، وحرصه علىٰ سلامة الأرض الإسلامية إلا أنّ يسارعَ علىٰ رأس جيش كبير ـ علىٰ الرغم من خطر الأخشيديين عليه ـ ليصد ذلك الهجوم البيزنطي الذي تعرض لأهل (بغرس) و(مرعش) وأوقع بهم، وخلّص الأسرىٰ من أيديهم.

كانت هذه المعركة هي بداية توتر العلاقات بين الدولة الحمدانية في حلب والبيزنطيين، ومنذ ذلك التاريخ، أي منذ نشوء الدولة الحمدانية في حلب، بدأ موقفها يتحدّد تجاه البيزنطيين، فلا هوادة معهم، لأنهم يطمعون في الأرض الإسلامية، فلا بُدّ من الحروب والتصدّي لعدوانهم.

وقد زادت الحروب اشتعالاً بعد أنْ انتزعَ الأمير سيف الدولة اعترافاً بدولته من الأخشيديين، وباركَ الخليفةُ العباسي في بغداد جهوده فتحول بنظره إلىٰ اتخاذ موقف التصدي والتحدي، وتحرير الثغور التي استولىٰ عليها البيزنطيون من قبل.

لقد امتازت الحرب في عهد الأمير سيف الدولة بالإغارة والسلب والنهب والعودة إلىٰ داخل الحدود، وهذا ما يسمىٰ في المصطلح العسكري بحرب العصابات.

أما البيزنطيون، فقد كانوا كذلك يتصدَوْن لهجمات سيف الدولة ويغيرون علىٰ الأرض الإسلامية، ولم يفكروا في الاحتلال.

وفي سنة ٣٣٥هـ[1] رأىٰ سيف الدولة وقبل أن يدخُلَ في الحرب مع الروم أن يخلص الأسرىٰ الذين أخذهم البيزنطيون من الثغور ليكونوا عَوْناً له في حروبه المقبلة، وراسَلَ امبراطور البيزنطيين في ذلك فاستجابَ له وتمّ تبادل الأسرىٰ

(١) أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٦٨.

حيث بلغ عددهم ألفيْنِ وأربعمائة وثمانين أسيراً، وفضل البيزنطيون علىٰ العرب مائتين وثلاثين أسيراً فداهم سيف الدولة من ماله الخاص.

أما الحديث عن معارك سنة ٣٣٦هـ إلىٰ سنة ٣٤٥هـ فموجود مفصلاً في الفصل الثالث من هذا البحث في «شعر الجهاد» ولا حاجة لسرده هنا.

الفترة الثالثة: معارك عام ٣٤٥هـ[١]: غزا سيف الدولة في سنة ٣٤٥هـ بلاد البيزنطيين، وكانت فرائص الروم لا تزال مرتعدة لما أوقعه بهم من هزائم، فوطىء من أرض الروم مَوْطِئاً لم يطأهُ المسلمون منذ ثلاثين سنة حيث قتل منهم نحو أربعة آلاف رجل، وغنم ما يفوق الإحصاء من الدواب والديباج، وعاد سالماً، وكان قائد الروم ابن الشمشقيق، وفي هذه الغزوة قال المتنبي قصيدته التي مطلعها:

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَجَـاعَـةِ الشُّجْعَـان هُـوَ أَوّل وهـيَ المَحَـلُّ الثّـانـي[٢]

وفي عام ٣٤٦هـ حاول الروم القبض علىٰ سيف الدولة غدراً وخيانة عن طريق بعض غلمانه، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، وفي سنة ٣٤٧هـ و٣٤٨هـ لم يسجّل سيف الدولة انتصارات كبيرة مظفرة علىٰ الروم.

وفي عام ٣٤٩هـ عاد سيف الدولة إلىٰ نشاطه الحربي بنفسه وأوغل في بلاد الروم وعاد محملاً بالغنائم والأسلاب، وفي الطريق تصّدى له قائد بيزنطي عُيِّن حديثاً «ليون فوكاس» الذي أخذَ المنافِذَ علىٰ الجيش العربي الإسلامي، فحلّت بسيف الدولة الهزيمة.

الفترة الرابعة: ويظهر في هذه الفترة أنّ الأمور قد بَدأَتْ تسيرُ في غير صالحه، ففي عام ٣٥١هـ فَزِعَ الرومُ من الهزائم المتوالية المتلاحقة التي أوقعها بهم

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس ص٣٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥١٧.
سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٢١٨.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٤.

الأمير سيف الدولة، ولقد أثار حفيظتهم أنّ أميراً لإحدىٰ المقاطعات الإسلامية يُنْزِلُ تلك الهزائم الكثيرة بأكبر إمبراطورية علىٰ وجه الأرض، فاستدعت أقوىٰ قائدٍ في جيشها وأصلبهم عوداً، ونقلته من الجبهة الغربية إلىٰ الجبهة الشرقية، حتىٰ يحرز بعض النصر علىٰ الأمير سيف الدولة، فيحفظ علىٰ الإمبراطورية ماء وجهها أمام رعاياها، وهذا القائد هو «نقفور فوكاس».

ولي نقفور إمارة الجيش البيزنطي، ولم يكد يمضي علىٰ تعيينه في منصبه الجديد شهور، حتىٰ أعد نفسه للثأر من الأمير سيف الدولة واستفاد من كل إمكانات الإمبراطورية في تجهيز الجيش.

حاول سيف الدولة أنْ يلتقي بالجيش البيزنطي بعيداً عن حلب فخرج في أربعة آلاف جندي من الفرسان والرّجالة إلىٰ «عزاز» ولكنه تيقن أن لا طاقة له بمحاربة هذا العدد الضخم، فعاد إلىٰ عاصمته حلب وخيم بظاهرها، وأرسل غلامه «نجا» لملاقاتهم في الطريق علىٰ رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، ثم لم يصبر فانطلق يتبعه ولكنه عاد إلىٰ العاصمة مرة أخرىٰ، وفتح خزائن السلاح للرعيّة.

وفي الصباح أشرف العدو علىٰ المدينة في ثلاثين ألف فارس، وجرىٰ بين جيش الأمير والجيش الغازي قتال مرير غير متكافىء من ناحية العدد ومتكافىء من حيث المقدرة علىٰ القتال، وبالرغم من أنَّ جنود المسلمين لم يتجاوزوا ثلاثة آلاف مقاتل، فإنَّ جيش العدو طلب النجدة فأُنجدوا بأربعين ألفاً، وألتقىٰ الجيش الكبير المهاجم بالجيش الصغير المدافع، فانسحب سيف الدولة نحو «بالس» لينظّم صفوفه من جديد، إلاّ أنَّ ذلك فتَّ في عضد المسلمين فوقع فيهم كثير من القتلىٰ ولجأ بعضهم إلىٰ القلعة، وأخيراً دخل الروم المدينة عن طريق الغدر، فنزلوا البلدة وأعملوا الحرق والتخريب وأنقذوا أسراهم.

وكانت خسائر سيف الدولة فادحة سواء في الرجال أو في المال أو في العتاد، وهزيمة المسلمين في حلب، لم يكن سببهاً ضعف سيف الدولة أو تقاعسه،

عليها وسبىٰ أهلها واستولىٰ علىٰ حصن «ارتاح» وعبر «بأنطاكية» وقاتله أهلها سبعة أيام ثم غادرها.

كان هذا آخر عمل قام به سيف الدولة، فاشتد عليه المرض وتوفي سنة ٣٥٦هـ في الخامس والعشرين من صفر.

وهكذا انتهت حياة هذا الأمير المجاهد بعد أن دوّخ الروم وحمل حملات صادقة عليهم.

بعد أن تعرفنا علىٰ المجاهد الأمير سيف الدولة تلك الشخصية الإسلامية التي أخذت علىٰ عاتقها الصراع الدموي مع الروم، لا بد لنا إلاّ أنْ نعرّج علىٰ شخصية إسلامية أخرىٰ عاشت في كنف هذا الأمير وأخذت علىٰ عاتقها الصراع الفكري مع الروم إلىٰ جانب الصراع الدموي، هذه الشخصية هي البطل الفارس، الشاعر المجاهد أبو الطيب المتنبي، وقبل أنْ أبدأ بشعره الجهادي لا بد إلا أن أتعرض لأمرين هما:

أولاً: عصر الشاعر.

ثانياً: حياة الشاعر.

* * *

فإن سيف الدولة كان يقول لأهل المدينة: أغلقوا أبواب المدينة واحفظوها، وأمضي أنا وأنظم جندي وأعود إليكم.

وفي سنة ٣٥١هـ[١] هاجم نقفور (عين زرية) فجأة بجيش يبلغ عدده ستين ألفاً، فطلب أهل (عين زرية) الأمان، ولكن الروم لا أمان لهم، فنكلوا بأهل البلدة، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، وأقام الدمستق في بلاد المسلمين واحداً وعشرين يوماً، وفتح حول (عين زرية) أربعة وخمسين حصناً للمسلمين، بعضها بالسيف والبعض الآخر بالأمان.

بعد خروج البيزنطيين من حلب عاد إليها الأمير سيف الدولة محطماً مريضاً من جراء ما أصاب رعيته من المآسي والآلام وما أصابهم من القتل والدمار، فأرسل حاجبه في جيش من أهل طرسوس إلىٰ بلاد البيزنطيين، ففتحوا وقتلوا وسبوا وعادوا إلا أنَّ البيزنطيين ردّوا علىٰ سيف الدولة باحتلال حصن «سيسية»[٢] فسيّر غلامه «نجا» في جيش عظيم إلىٰ حصن «زياد» فالتقىٰ بجيش البيزنطيين فهزمهم واستأمن إليه خمسمائة رجل منهم.

لقد سقطت هيبة سيف الدولة أمير حلب بسبب المرض علىٰ الرغم من الغزوات المتلاحقة التي كان يوجهّها بقيادة «نجا» وأحياناً بقيادته وهو محمول، كما أن نقفور أصابه الغرور بالانتصارات التي أحرزها، فلم يتأثر من الضربات التي يوجهها سيف الدولة، فلم تكن يده قوية كما كانت فقد أصابها الشلل.

وفي سنة ٣٥٢هـ[٣] خرج سيف الدولة وغلامه نجا إلىٰ الغزو فنزل سيف الدولة علىٰ «الدروب» بينما دخل «نجا» ملطية ـ فأحرق وقتل وأقام ثمانية عشر يوماً، ولكن نقفور رد عليه سنة ٣٥٢هـ أيضاً بهجمات عنيفة، حيث نزل بالقرب

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥٣٨-٥٤٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١١ ص٢٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥٤٧.

أحمد صالح الفاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٩٤.

من «أذنة» فلقيه أهل طرسوس فهزمهم وقتل منهم أربعة آلاف وانهزم الباقون إلىٰ تل قريب من «أذنة» فأحاطوا بهم وقتلوهم، وهرب أهل أذنة إلىٰ المصيصة فحاصرها نقفور مدة، فلم يقدر عليها.

بعد أن أصاب سيف الدولة المرض سقطت هيبة الدولة الحمدانية، وتطور النزاع بين الدولة الحمدانية والبيزنطية إذ أخذ البيزنطيون يجوبون أرجاء الدولة دون أن يعترضهم أحد.

وفي سنة ٣٥٣هـ[١] بني نقفور مدينة بالقرب من قيسارية، وفي سنة ٣٥٤[٢] انقض نقفور علىٰ طرسوس والمصيصة، وقتل عدداً كثيراً.

وفي سنة ٣٥٥هـ[٣] شعر الأمير بقرب نهايته، فأراد أن يتوّج نهاية حياته بعمل عظيم، فرأىٰ أن يخلص الأسرىٰ المسلمين من الأسر مهما كلف الثمن، فأخذ يراسل الإمبراطور البيزنطي، فاستجاب له وتمّ تبادل الأسرىٰ علىٰ شاطىء الفرات في سميساط.

ولما لم يبق عند الأمير سيف الدولة من الأسرىٰ البيزنطيين من يفادي به اشترىٰ باقي الأسرىٰ كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتىٰ نفذ ما معه من المال، فاشترىٰ الباقين ورهن عليهم درعه المجوهرة المعدومة النظير.

إنَّ ما قام به الأمير سيف الدولة من فداء الأسرىٰ من البيزنطيين يدل علىٰ كرمه وسخائه في سبيل الإسلام والمسلمين وهذا ما كان له الأثر الكبير في نفوس المسلمين، فاحتفل أهل حلب وغيرها من البلدان بعودة أبنائهم من الأسر، ولكن لم يمض شهران علىٰ فداء الأسرىٰ حتىٰ قام نقفور فاجتاح الأراضي الإسلامية نهباً وأسراً، فخرج سيف الدولة للقائه فنزل «شيزر» ونزل نقفور «منبج» ثم سار إلىٰ «بالس» وأخذ منها ثلاثة آلاف أسير، ثم إلىٰ «قنسرين» ونزل علىٰ «تيزين» فاستولىٰ

---

(١) أحمد صالح الفاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٩٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٥٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٥٧٢.

أولاً: عصر أبي الطيب

كانت الدولة الإسلامية طوال القرن الثاني وفترة من القرن الثالث الهجري متماسكة الأطراف مترابطة الأمصار إلا في القليل النادر حيث تقوم ثورة هنا أو فتنة هناك، ثم لا تلبث أن تنتهي أو تخمد.

رافق المتنبي القرن الرابع للهجرة، منذ استهلّت أعوامه حيث تخطّىٰ نصفه الأول، فشهد في حياته زحمات الحوادث، وتغلّب السياسة، وتفرّق الأمصار والشعوب.

وفي مطلع القرن الثالث للهجرة، بدأ نفوذ الفرس يضعف، إذْ كان من سياسة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) أن يستكثر من الأتراك لضرب الفرس، وبذلك أشعل فتيل التنافس بين العناصر الثلاثة، العربي، الفارسي، التركي، وجرىٰ علىٰ نهجه من جاء من بعده، مما أدّىٰ إلىٰ استبداد الأتراك بالخلافة وسيطرتهم علىٰ مرافق الحياة العامة، وتجرّئهم علىٰ الخلافة، وإطاحتهم بهيبتها، وضربهم بسلطة الخليفة جانباً.

إن عصر المتنبي عصر مليء بالأحداث، حيث إنه يقع في حقبة حاسمة من التاريخ الإسلامي، تميزت بالصراع المشوب الأوار بين السلطة الرسمية ومعارضتها من الشيعة والقرامطة.

في هذا العصر يشهد الباحث بوضوح حياة القصور وما بها من إسراف وتبذير وشهوات ومؤامرات، استهدفت جعل الخلافة الإسلامية ألعوبة في أيدي الجيش تارة أو في قبضة الوزراء تارة أخرىٰ، أو وفق أهواء الحريم تارة ثالثة، ولا شك في أنّ أثر ذلك كلّه انعكس على دولة الخلافة، فمزق وحدتها مما شجع الكثير من الأمراء على الانفصال بولاياتهم عن جسم الخلافة وتأسيس الدويلات المستقلّة التي تخضع للخليفة بالمظهر فقط. وأدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع أزمات اقتصادية حادّة مستعصية زعزعت إيمان العاملين بالمؤسسات الإدارية الرسمية في إيجاد الحلّ الصحيح والناجح لها.

إنّ هذا العصر قد شهد مآسي كثيرة، فقد امتاز بتطرف شديد في مختلف نواحي الحياة فبلغ فيه التفاوت بين الناس حدّ التناقض الحاد، بين الغني والفقير، والتدين والإلحاد والنزاهة والخيانة، ولا شك أنّ وجود مثل هذه الظواهر المتناقضة في مجتمع ما، تكفي لأن تفكّ عراه وتزعزع أركانه وتقوض أسسه.

إنّ الناظر إلىٰ خارطة الدولة الإسلامية في عصر أبي الطيب المتنبي يجد أوطاناً سياسية، ودويلات مشتّتة متباعدة الأهواء والاتجاهات، تتصارع مع بعضها سرّاً وعلانية من أجل البقاء، ففي تركستان دولة سامانية (٢٦١-٢٦٩هـ) وفي طبرستان دولة زيبارية (٣١٦-٣٤٤هـ) وفي أفغانستان والهند دولة غزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ) في حين استقلّ البويهيّون بفارس ٣٢٠هـ والإخشيد بمصر عام ٢٢٣هـ، ثم تغلب البويهيّون على بغداد عاصمة الخلافة عام ٣٣٤هـ.

والبويهيّون يدينون بالمذهب الشيعي الزيدي، فأصبح الخطر يحدق بالخلفاء العباسيين من الأعاجم الجدد، لأنهم يؤمنون بأن الخلفاء العباسيين هم مغتصبو الخلافة من أصحابها الشرعيّين العلويين.

هذه الدولة العباسية الكبرى التي كانت تبسط سلطانها على العراق وفارس وما وراء النهر حتى حدود الهند شرقاً وبلاد الشام والجزيرة ومصر وجزءاً من شمال إفريقية غرباً، هذه الدولة الكبرى المكوّنة من أمصار عديدة، وأجناس شتّى، بدأت تتشعّب وتظهر فيها الدويلات المستقلة كما أسلفنا، يحدث كل ذلك والخلافة لا تحرك ساكناً، لا لأنَّ الأمر لا يعنيها ولكن لخوفها ورعبها وضعفها.

وإذن فقد كانت دولة الخلافة ممزّقة الأوصال وأقاليمها نهباً يتخاطفها القادة الأقوياء الذين لا يكتفون بما تحت أيديهم من ولايات، بل يستبدّ بهم الطمع حتى دقّوا أبواب بغداد واستولَوْا عليها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من ثورة الولاة واستقلالهم بل شاعت الفتن، وكثرت الاضطرابات في قصور الخلفاء الذين أصبحوا كالدُّمىٰ في أيدي الوزراء والقادة، فالوزير (العباس بن الحسن الجرجرائي) يغضب علىٰ الخليفة، المكتفي فيعزله ويولي مكانه صبياً لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ويلقبه بالمقتدر بالله،

ولم يكن هذا المقتدر الأ الأخ الأصغر للخليفة المكتفي، ولكن خصوم الوزير ما يلبثون أن يتآمروا عليه ويزيحوه من كرسي الوزارة ثم يقتلوه، ويخلعوا الخليفة الصغير لكي يولوا مكانه الشاعر الأمير عبد الله المعتز الذي فتن بشعره الجميل المتأديون من سكان بغداد، ولكن الخليفة الشاعر لم يستقرّ على كرسي الخلافة إلاّ يوماً واحداً عزل ثم قتل بعد اثني عشر يوماً.

وهكذا نجد الخلافة غير مستقرّة وأعمار الخلفاء في كفّة القدر وكثيراً ما يموت خليفة فيتعذر تعيين خليفة مكانه، لذلك كان الاستقرار مفقوداً، والأمن ضائعاً، وكان طبيعياً أن تكثر الثورات والفتن في كل مكان.

ففي البصرة قامت (ثورة الزنج) علىٰ يد رجل فارسي اسمه (علي بن محمد) دعا العبيد إلىٰ الخروج علىٰ ساداتهم في وقت كان الرق فيه منتشراً، وقد لقيت دعوته نجاحاً سَرَت بين العبيد سريان النار في الهشيم، فتصدّت لهم جيوش الخليفة (الموفق) وقضي على هذه الثورة التي عاشت خمسة عشر عاماً، عاثت في البلاد فساداً.

ولا تكاد بلاد الخلافة تستريح من فظائع الزنج حتى تمنى بنكبة أشد وأعظم هي ثورة القرامطة.

والقرامطة جماعة مذهبها الدماء، وعقيدتها القتل، وقد نشأت فكرتهم في العراق في المنطقة المحيطة بواسط سنة ٢٧٧هـ، وقد اشتدّ صراع حركة القرامطة مع الخلافة العباسية في بغداد، وتعرّض القرامطة لقوافل الحجاج، ونكلوا بهم، وأباحوا دماءَهم وأموالهم وقاموا بقتلهم في بيت الله الحرام يوم التروية، ونقلوا الحجر الأسود من مكة المكرمة إلىٰ بلاد الإحساء (المنطقة الشرقية) وهاجموا الكوفة بلد المتنبي أكثر من مرّة وعاثوا فيها فساداً وشاهد شاعرنا ذلك بأم عينه.

ولم يقف الأمر عند ذلك من انحلال الروابط بين الأمصار الإسلامية وضعف الخلفاء، وقيام الثورات الداخلية، بل إن تلك الظواهر المعوقة قد شجعت الروم على أن يغيروا على الثغور وأن ينتقموا لأنفسهم ممّا قد أصابهم من هزائم على أيدي الخلفاء الأقوياء.

إن هذه الحالة التي كانت تعيشها دولة الخلافة العباسيّة والأوضاع السياسية في تلك الفترة حيث التمزّق والتفكّك والضعف تشبه إلى حد بعيد الوضع الحالي الذي يعيش فيه المسلمون هذه الأيام.

إن كل دولة من دول المنطقة العربية تعلم ما يخطّط الاستعمار للسيطرة علىٰ أراضيها وخيراتها والقضاء على الإسلام والمسلمين، وتعلم كل دولة أن إسرائيل ما هي إلا جسر أقامه الكافر المستعمر الغربي لكي يمر عنه للدخول إلى هذه البلاد والسيطرة عليها وتعلم كل دولة عربية أن هدف إسرائيل الاستيلاء علىٰ الأراضي العربية وتكوين دولة إسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات إلىٰ النيل ومع هذا تقف هذه الأقطار وقفة المتفرج دون أن تحرك أي دولة من هذه الدول ساكناً وكأن الأمر لا يعنيها، بل علىٰ العكس إنّ كل قطر من هذه الأقطار يحوك المؤامرات ضد القطر الآخر وإسرائيل تتوسّع.

إن الهجمة الشرسة التي يقوم بها الكافر المستعمر هذه الأيام يشبه إلىٰ حد كبير الهجمة الشرسة التي كانت تقوم بها الدولة البيزنطية في القرن الرابع الهجري، إلا أنه في القرن الرابع وجد المسلمون من يذود عن حماهم وعنهم.

إذن كانت الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مفكّكة الأوصال ضعيفة والأعاجم هم الذين يحكمون ولا همّ لهم إلاّ مصالحهم الشخصية لذلك لم يكن مستغرباً أن تكون تلك الفترة المهتزّة من تاريخ الدولة الإسلامية بمثابة إرهاص لظهور إمارة عربية صحيحة قوية تحفظ التوازن وتحمي الثغور وترد غارات الروم، فلم يمض وقت طويل حتى قامت الدولة الحمدانية التي أخذت على عاتقها صدّ غارات المعتدين ونشر الهلع والرعب في قلوب الروم.

في ضوء هذه الأحداث كلها عاش شاعرنا المتنبي فوعى الأحداث وأثر ذلك كله في نفسه ولذلك وقف يرفع صوته حاثّاً المسلمين أن يضعوا أيديهم في يده من أجل إرجاع الخلافة لتحكم وفق ما أنزل الله وتزيل حكم الأعاجم.

وفي ضوء دراسة عصر المتنبي وما ساده من ثورات وفتن وإمارات متحاربة لا بد لنا من أن ندرس حياة هذا الشاعر.

ثانياً: حياة أبي الطيب (المتنبي)

٣٠٣-٣٥٤هـ

أحمد بن الحسين بن عبد الجابر الجعفي[١].

أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي[٢].

أحمد بن محمد الحسن بن عبد الصمد الجعفي[٣].

هو أبو الطيب الملقب بالمتنبي، الشاعر المشهور، عربي صميم، لأب جعفي نسبة إلىٰ جعفي بن سعد العشيرة من مذحج من كهلان من قحطان، وأم همدانية يمنية.

وجدة المتنبي التي رعته وربته كانت همدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء النساء الكوفيات[٤].

أما أبوه فقد روىٰ الخطيب البغدادي[٥] عن أبي الحسن محمد بن يحيىٰ العلوي الزيدي قال: «كان المتنبي وهو صبيّ ينزل في جواري بالكوفة وكان يُعرف أبوه بعيدان السقّاء يسقي لنا ولأهل الحي».

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١، ص١٢٠.
ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان جـ١ ص١٥٩.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢.

(٣) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٣.
عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه ص١٠.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٣.

(٥) المصدر نفسه: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢.

obeikandl.com

أما ابن خلكان[1] فيقول: «يقال إنّ أبا المتنبي كان سقّاء بالكوفة» ويقول البديعي[2]: وكان والده الحسين يعرف بعيدان السقاء.

ويظهر كذلك من أبيات رواها الثعالبي في يتيمة الدهر أنّ أبا المتنبي كان سقّاء، فقد هجاه ابن لنكك البصري[3] حين سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر.

قال ابن لنكك:

لكن بغداد جاءَ الغَيْثَ ساكنُها نعالها في قفا السَّقَّاء يَزْدَحِمُ

وقال أيضاً:

متنبيكم ابن سقاء كوفان ويوحي من الكنيف إليه
كان من فيه يسلح الشعر حتى سلحت فقحة الزمان عليه

وقد ذكر بعض خصومه أن والد المتنبي كان سقّاء وأضاف بعضهم أن اسمه (عبدان) وكان لقبه الذي يلقّب به هو (عيدان السقاء).

وفي تاج العروس يقول الزبيدي[4] وعيدان السقاء بالكسر والد الإمام أبي الطيب (أحمد بن الحسين بن عبد الصمد المتنبي الكوفي الشاعر المشهور. وهكذا ضبطه الصاغاني، قال الحافظ وهكذا ضبطه ابن ماكولا.

فإذا دقق الإنسان في الروايات السابقة لم يجد فيها خبراً مجزوماً، لا يجد إلا أقوالاً يصحّ أن يشك فيها الإنسان، ويزيد الإنسان تشكيكاً أن سقاء بالكوفة لا يحظى عادة بوضع ولده في مكاتب الأشراف[5].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.

(٢) يوسف البديعي: الصبح المنبى ص٢٠.

(٣) ابن لنكك: هو أبو الحسن المعروف بابن لنكك البصري الشاعر الأديب، كان فرد البصرة وصدر آدبائها في زمانه، ولكن المتنبي أخمل ذكره، لذلك كثر شعره في هجائه (البديعي: الصبح المنبي ص١٤٤).

(٤) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس جـ٢ ص٤٤٠ مادة عود.

(٥) أنيس المقدي: أمراء الشعر العربي ص٣٤٩.

وفي خزانة الأدب[1] «اختلف إلىٰ كتّاب فيه أشراف العلويين فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً».

وبعيد أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحي القاطن به ورواية ابن خلكان فيها تشكيك حيث يقول: يقال إنّ أبا المتنبي كان سقاء بالكوفة فإذا كان ابن خلكان هو أقرب الناس إلىٰ عهد المتنبي يشك في أن يكون والد المتنبي سقّاء، فما بالك بالروايات التي جاءت متأخرة. ومعروف لنا بأنه كان للمتنبي حساد وأعداء أرادوا أن يجرحوه.

يقول شوقي ضيف[2]: «إن كل ما يقال من أن أباه كان سقّاء يبيع الماء بالكوفة من وضع خصومه ليثبتوا عليه أنه ينحدر من رجل حقير لا شأن له».

وهذا الكلام ينقض نقضاً واضحاً ما أكده الرواة من أنه كان يختلف في صباه إلىٰ كتّاب فيه أولاد أشراف العلويين، وهذا يدل على أن أباه كان يحظىٰ بشيء من متع الحياة، أتاح له ألا يكلف ابنه شيئاً من عنائها، ليفرغ للدرس وليعكف علىٰ التعلم والتثقف باللغة والشعر. فالقول بأن أباه كان سقّاء إنما هو قول بعض حساد المتنبي وشانئيه ليغضّوا من قدره.

وفي تاج العروس[3] قال: وعيدان السقاء بالكسر لقب والد الإمام أبي الطيب. ويبدو أن كلمة «إمام» التي ذكرها الزبيدي ووصف بها الشاعر لم تأت عفواً لأنه من المعلوم أن كلمة إمام لا تطلق جزافاً في قاموس لغوي، أعد في عصر لا يمكن أن يوصف شخص بها ما لم يكن ذا صلة حقيقية بمدلولها.

ولم يعرف عن المتنبي في حياته كلّها أنه كان إماماً لمسجد أو جامع أو إماماً يأتم به الناس عند الصلاة، أو مجتهداً في فقه أو حديث أو تفسير، مما يجعل الإنسان يميل إلىٰ أنّ المتنبي كان من عائلة عريقة النسب وهذا ما أكّده محمود

---

(١) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢.

(٢) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٧٥.

(٣) محمد مرتضي الزبيدي: تاج العروس جـ٢ ص٤٤٠ مادة عود.

شاكر[1] نقلاً عن ابن العديم أنّ المتنبي ينتسب إلىٰ العلويين حيث أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله فيقول: «إنّ علاقة المتنبي بالعلويين لم تقتصر على تعلمه في كتّاب فيه أولاد أشراف العلويين بالكوفة، بل ارتفعت علاقته إلىٰ أخوة الرضاع فقد ذكر ابن العديم ٥٨٨-٦٦٠هـ أن المتنبي أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله وأسنده فقال أخبرني صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي مولىٰ الحموي البغدادي قال: رأيت ديوان أبي الطيب المتنبي بخط أبي الحسن علي بن عيسىٰ الربعي قال في أوله الذي أعرفه من نسب أبي الطيب بأنه أحمد بن الحسين.

مولد المتنبي:

يقول عبد القادر البعدادي[2] إن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة فيها ثلاثة آلاف بيت من بين روّاء ونساج لذلك نرى الباحث محمود شاكر[3] يعلق على هذا الخبر فيقول: ومن هذه الرواية ترى مبالغة عجيبة، أكان جل أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة وهو خير جوانبها، ما بين سقاء ونسّاج، وهذا عجيب أن يكون ذلك كذلك، فإذا كان السقاؤون والنساجون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ثم بمحلة كندة وحدها ثلاثة آلاف دار، فكم شغل من بقي من أهل اليمن من أصحاب الصناعات، ومن لف لفهم من التجار وأصحاب الأرضين، ثم ما يبقى من حي أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها وهم كثر فهذه المبالغة وجه من وجوه إسقاط هذه الرواية.

ولد أبو الطّيّب سنة ٣٠٣هـ بالكوفة بمحلّة تعرف بكندة، وفي الكوفة نشأ النشأة الأولى وكان يتردّد بين البادية والحضر[4] فاكتسب من الأولىٰ صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها.

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٢٨.

(٢) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢-٣٨٣.

(٣) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٨.

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.

وقد ذكر الثعالبي[1] الذي ولد قبل المتنبي بأربع سنوات: أن أباه سلّمه إلىٰ المكاتب وردّده في القبائل فنشأ المتنبي في خير حاضرة. «والكوفة أرض ذات طبيعة جميلة حببت إلىٰ كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها علىٰ غيرها، اتخذها أمير المؤمنين على كرم الله وجهه قاعدة أمره.

ولد الشاعر من أسرة شيعية، وتلقىٰ تعليمه الأول بمسقط رأسه الكوفة في كتّاب لأولاد الشيعة العلويين.

لقد عرف تعليم الصبيان في الكتاب منذ فترة مبكرة وانتشرت الكتاتيب من القرن الثاني للهجرة في المدن والقرى حتى أصبح لكل قرية كتّاب أو أكثر، وكانت الكتاتيب ملحقة بالمساجد أو مستقلّة عنها حتى إن أحد الكتاتيب كان يضم ثلاثة آلاف تلميذ»[2].

إن وجود مثل هذه المدارس يتفق إلى حد كبير مع طبيعة الحياة الاجتماعية والحياة المذهبية للكوفة، هذا بالإضافة إلى أن الكوفة كانت مهداً للتشيع.

وقد قامت على هذه المدارس شخصيات أفاض التاريخ في الحديث عنها[3] فمنهم علماء وفقهاء وأدباء.

قلت إن المتنبي ولد في أسرة شيعية علوية وهذه الأسرة وجّهته توجيهاً دينياً خاصاً حين ألحقته بمدرسة أشراف العلويين، فتلقى مبادىء دينية خاصة فرضها وضع هذه المدرسة، وقد كان القرآن الكريم المادة الأساسية في ثقافته وقد تضافرت عوامل متعددة وجهته لدراسة القرآن الكريم فنشأة الشاعر المبكرة في الكوفة هيّأت له هذه العلاقة المبكرة بكتاب الله العظيم، وطبيعة تكوينه الفكري بوصفه شاعراً وهب نفسه لفنّ النظم وجهتـه لتمثل أرقىٰ نمط بلاغي في الأساليب العربية.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦٢.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٤٣.

(٣) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٤٢-٤٣.

وقد كان اهتمامه بالنحو واللغة العربية دافعاً لحفظ أجزاء كبيرة من القرآن الكريم، كان الشاعر يستند إليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملىٰ عليهم ديوانه.

ولذلك نراه يستشهد بالقرآن الكريم، وكان من الطبيعي ممّن حفظ القرآن أو أجزاء كثيرة منه أن تتسلل إلىٰ شعره بعض آثار هذا الأطلاع.

فقد تعرّض إلىٰ قصة نوح والطوفان وقصة قميص يوسف:

لو كُنْتَ بَحْراً لم يَكُنْ لك ساحِلٌ أو كُنْتَ غَيْثاً ضاق عَنْك اللُّوحُ
وخَشَيتُ مِنْكَ علىٰ البلادِ وأهْلها ما كانَ أَنْذَرَ قَوْمَ نُوحٍ نُوحُ[1]

فهذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

كأنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مَسَامِعِه قميصُ يوسفَ في أَجْفانِ يعقوبِ[2]

وقال مشيراً إلىٰ النصارىٰ الذين يؤمنون بعقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

أرىٰ المُسْلمينَ مَعَ المشركيـ ـنَ إمّا لِعَجْزٍ وإمَّا رَهَبْ
وأنتَ مَعَ اللهِ في جَانِبٍ قليلُ الرُّقادِ كثيرُ التَعَبْ
كأنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ ودان البريّةُ بابن وأبْ[3]

واتخذ من شعره معرضاً لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود:

تَعجَّلُ فيَّ وُجُوبُ الحدودِ وحدّي قَبْلَ وُجُوبِ السُّجودِ
وكُنْ فارِقاً بين دَعْوىٰ أرَدْتُ ودعوىٰ فَعَلْتُ بشأوٍ بعيدِ
فمَا لَكَ تقبلُ زُورَ الكلامِ وقَدْرُ الشَّهادةِ قَدْرُ الشُّهودِ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٥٤.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٧٢.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٤.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧.

والمتنبي شهد كثيراً من المعارك التي نشبت بين المسلمين والروم وهو في حاشية سيف الدولة فوصف الحرب وبرع في هذا الفن براعة تفوّق بها علىٰ الشعراء، حيث كان يقول الشعر متأثراً بما يرىٰ قبل كل شيء ومن هنا نفهم السبب الذي تحسّه حين تقرأ جهادياته، إنك تحسُّ بأنك أمام الجيش الإسلامي المظفر يقوده البطل المقدام ويعلن البشائر بعد كل نصر.

هنيئـاً لأَهْـلِ الثَّغْـرِ رأْيُـكَ فيهِـمُ وأنكَ حِزْبُ اللهِ صِرْتَ لَهُم حِزْبا[1]

بالرغم من كل هذا فإن طه حسين[2] شك في نسب الشاعر ولذلك فهو يقول: وليس من شك عندي في أن المتنبي لمّا تقدمت به السن قليلاً، قد عرف من أمر نفسه، ومن أسرته ما أنكره وما لم يستطع أن يقيم معه في الكوفة فآثر الرحيل.

ويقول طه حسين[3] في مكان آخر: إن مولد المتنبي كان شاذاً، وإنّ المتنبي أدرك هذا الشذوذ، وتأثّر به في سيرته كلّها، ولم يستطع أنْ يلائم بين نفسه الشاذّة، وبيم البيئة الكوفية التي كان يراد له أن يعيش فيها.

من هذا نرىٰ أنّ طه حسين يتّهم المتنبي بأنه ابن غير شرعي فنسب إليه الشذوذ، والشذوذ الذي نسبه طه حسين إلىٰ المتنبي الصبي لا يعدّ شذوذاً بل يُعَدّ امتيازاً وتفوقاً.

يقول شوقي ضيف[4]: «لقد شكّوا في نسب المتنبي لأنه ليس في أشعاره أي إشارة لأبيه وأمه وهذه مقدمة لا تحتّم النتيجة، إذْ يشرك المتنبي في ذلك كثير من الشعراء العباسيين الذين لا يشكّ في نسبهم العربي أمثال البحتريّ حيث إن ديوانه

---

(١) الديوان: جـ١ ص٦٢.

(٢) طه حسين: مع المتنبي ص١٨.

(٣) المرجع نفسه ص٢٥.

(٤) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٧٣.

يخلو من الحديث عن أبيه ويخلو من ذكر أمه، فهل ترتّب علىٰ ذلك أنه كان متّهماً في نسبه».

أخذ المتنبي أكثر علمه من ملازمة الورّاقين فكان علمه من دفاترهم وكان المتنبيّ من المكثرين من نقل اللغة والمطّلعين علىٰ غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلاّ واستشهد فيه بكلام العرب من النّظم والنّثر حتىٰ قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي[1] صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً كم لنا من الجموع علىٰ وزن فِعْلى؟ فقال المتنبي: حِجلى وظربى[2].

قال الشيخ أبو علي: طالعت كتب اللغة ثلاث ليال علّي أن أجد لهذين الجمعين ثالث فلم أجد.

ومما يذكر في سرعة جوابه وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن حنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشده المتنبي أبياتاً جاء فيها، إنما التهنئات.

فقال أبو علي: التهنئة مصدر والمصدر لا يجمع.

فقال المتنبي لآخر بجنبه: أمسلم هو؟ فقال: سبحان الله هذا أستاذ الجماعة!!

فقال المتنبي: إذا صلّىٰ المسلم وتشهد أليس يقول التحيات.

قال: فخجل أبو علي وقام[3].

---

(١) أبو علي الفارسي: أبو علي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، كان من أكابر النحويين، أخذ عن أبي بكر السراج، وأبي إسحاق الزجاج، فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد، دخل بغداد، خدم الملوك، حظي عند عضد الدولة فكان يقول عضد الدولة أنا غلام أبي علي في النحو، كان متهماً بالاعتزال، أقام بحلب عند سيف الدولة.
المصادر: نزهة الأدباء في طبقات الأدباء ص٣١٥-٣١٧.
الأعلام للزركلي جـ٢ ص١٩٣.
البداية والنهاية جـ١ ص٣٠٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني. لسان العرب جـ١ ص١٥٩-١٦٠.

كان محباً للعلم فلم يترك باباً من أبواب الكتب إلاّ قرأه كالأدب واللغة والفلسفة والمنطق ولقي الكثير من أكابر العلماء كالزّجّاج، وابن السّرّاج، والأخفش، وابن دريد، وأبو علي الفارسي وابن جنى وغيرهم[١].

وكان أبو الطيب متورّعاً في خلقه لا يخرج عن حدود الوقار، متزمّتاً لا يلين للشهوات، ولا يلقي لها مقادة، مترفّعاً عن سفساف الأخلاق متمسّكاً بمعاليها، أخذ نفسه بالجد الذي لا يفتر وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها[٢].

قال علي بن حمزة[٣]: «بلوت من أبي الطيب بثلاث خصال حميدة وتلك أنه ما كذب ولا زنا ولا لاط»[٤].

خالف الأدباء والشعراء من أهل عصره، فما شرب الخمر، ولا حمل وزرها وكان منصرفاً للعلم، قارئاً، محقّقاً لدقائقه، طويل النظر والتدبر فيما يمرّ به من أحداث الزمان، كثير الاهتمام بأمر الأمة التي هو منها، لا يفوته مغمز ينتقده، وخلق يستيقظه وكان أهل العصر علىٰ خلاف له في ذلك، وخاصة من انتسب إلىٰ الأدب.

«إنك حين تتصفّح حياة المتنبي وتدرس أخلاقه وتستقري كبرياءه في شعره وفيما روىٰ عنه فيما كان بينه وبين سيف الدولة وبين كافور أو عضد الدولة وغيرهم من الذين اتصل بهم، لا تجد أثراً للكبرياء التي تحط من قدر صاحبها وتُلحقه بالمغرورين، وإنما تجد عظمة أدبية واعتداداً بالنفس وصوناً لكرامة الأدب والأديب من الصعلكة والمهانة في مجالس الملوك والأمراء فقد عرف المتنبي قيمة رسالته الفنية[٥].

---

(١) أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي ص٣٢٨.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١١٣.

(٣) علي بن حمزة: كان من أئمة العربية مات في رمضان سنة ٣٧٥هـ بصقلية إنما دخل المتنبي في داره وقرأ عليه شعره محمود شاكر ص٣٩ جـ١ المتنبي.

(٤) شاكر المتنبي جـ١ ص١١٤.

(٥) طاهر الطناجي: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.

إنك تقرأ المتنبي فتحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها ويكشف لكل سريرة أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها[١].

أما علي أدهم[٢] فيقول: إن المتنبي أقرب شعراء العربية إلىٰ التمثيل العام لعبقرية الشعر العربي، ولذلك انعقد عليه الإجماع، وعمرت بذكره المجالس وتغنت بأخباره السير.

وهذا عبد الرحمٰن صدقي[٣] يعطي رأيه فيه فيقول: «لقد كان المتنبي في الحقّ أشعر شعراء زمانه وأغزرهم أدباً وأقواهم خلقاً وطبعاً».

حاول المتنبي في أول حياته أن يثور ضد نظام الحكم علّه يحقق أحلامه السياسية، غير أنه أخفق، فقد قضىٰ علىٰ ثورته لؤلؤ والي حمص، وزج في السجن، وظل فيه عامين ثم استتابه الوالي وأطلق سراحه، وفي هذه المرحلة نظم شعره الذي كان يدعو فيه إلىٰ إعادة الحكم العربي الإسلامي من العجم، وفي هذه المرحلة تحدىٰ الأمراء والملوك، وتعرّض لهجائهم فاعتبرهم أرانب لهم جسم البغال وأحلام العصافير.

وَدَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإنْ كانَتْ لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم ... ولكنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنَّهمُ ملوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عيونُهم نيامُ[٤]

ويصف ما وصلت إليه الأمة العربية الإسلامية، تحت حكم الأعاجم، لذلك نراه يدعو إلىٰ تعرية الحكام المتسلطين علىٰ مصائر الأمة الإسلامية بالطريق الذي يحقق مصيرهم المنتظر، الطريق الذي يؤكّد ضرورة اجتماع كلمة الأمة وعودة سلطانهم، وإعادة الخلافة العربية الإسلامية وطرد الأعاجم.

---

(١) علي الجارم: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٢) علي أدهم: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٣) عبد الرحمٰن صدقي: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٧٠.

وإنمـــا النـــاسُ بـــالملـــوك ومـــا تُفْلـــحُ عُـــرْبٌ ملـــوكُهـــا عَجَـــمُ
لا أدبٌ عنـــدهُـــمُ ولا حَسَـــبٌ ولا عهـــودٌ لهُـــمْ ولا ذِمَـــمُ[1]

وكان الشاعر يؤمن بمبدأ القوة منذ صباه وبقي ملازماً له حتىٰ نهاية حياته، بالرغم من بعض التغيرات التي طرأت عليه، لقد وجد المتنبي بلاد الشام مسرحاً لمد وجزر بين الإخشيديّين وبين ولاة الخلافة العباسية وأنصارها من الجنود، فتارة تصبح هذه المدينة أو تلك تابعة للإخشيد وتارة تصبح تابعة للخلافة والناس يفرض عليهم من الخنوع والبؤس والشقاء ما لا يطيقون فيحثهم الشاعر علىٰ الثورة ولكن دون جدوىٰ.

لقد كان أشد ما يغيظه أن يجد المسلمين من حوله متواكلين مستسلمين لحكامهم فأخذ ينفخ فيهم ويحثهم علىٰ ثورة لا تبقىٰ ولا تذر.

أرىٰ أُنـاسـاً ومحصـولـي علـىٰ غَنَـمٍ وذكر جودٍ ومحصولي علىٰ الكَلِمِ
سيصحبُ النَّصلُ مني مثل مضربَه ويَنْجلي خَبَـري عـن صِمَّـة الصَمَّـمِ
لأتـركـنَّ وجـوهَ الخيـل سـاهمـةً والحربُ أقومُ من ساقٍ علىٰ قدم
شَيْخ يرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافِلَةً ويستحـلُّ دمَ الحجّـاجِ فـي الحـرمِ
بكُـلِّ مُنصَلِـتٍ مـا زال مُنْتظـري حتىٰ أدَلْـتُ لـه مـن دولـةِ الخـدمِ[2]

واستمر المتنبي باستنهاض المقاتلين ودفعهم إلىٰ محاربة الأعداء الذين استلبوا حقهم، ولذلك فإنك ترىٰ في شعره ملامح تدعو إلىٰ ثورة حقيقية.

ولا تحسبـنَّ المَجْـدَ زِقّـاً وقَيْنَـةً فما المَجْدُ إلا السَّيفُ والفِتكَةُ البَكْرُ
وتضـريـبُ أعنـاقِ الملـوكِ وأنْ تـرىٰ لك الهبواتُ السّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
ومن ينفق الساعاتِ في جمع مالِهِ مخـافـةَ فَقْـرٍ فـالـذي فَعَـل الفَقْـرُ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ١٤٩، ١٥٠.

بعد ذلك أعلن أنه سيطلب حقه وحق المسلمين جميعاً بنفسه:

سأطلب حقّي بالقَنا ومشايخٍ ... كأنُهمُ من طولِ ما التثمُوا مُرْدُ
أذُمُّ إلىٰ هذا الزمان أُهَيْلَهُ ... فاعلمُهمْ فَدْم[1] وأجزمهمَ وغْدُ
وأكرمُهُمْ كَلْبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ ... وأسهَدُهُم فَهْدٌ وأشجعُهُمْ قِرْدُ[2]

بعد هذه المرحلة اتصل الشاعر بسيف الدولة ٣٣٧-٣٤٦هـ وفي هذه المرحلة قال أعظم شعر في الحرب، فلقد سجل كل ما وقعت عليه عينه، لذلك كان شعره في هذا الدور من حياته صورة لوجدانه وآماله وتجسيداً للبطولة المتمثلة في الجماعة المقاتلة.

لقد كان المتنبي في هذا الدور المؤرخ الحقيقي للمعارك التي خاضها سيف الدولة ضد البيزنطيين، فلقد كان الشاعر أشبه ما يكون مراسلاً حربياً حسب لغة اليوم، فالعربية لم تعرف في القديم والحديث كأبي الطيب براعة في تصوير شعر الجهاد.

بقي المتنبي عند سيف الدولة حتىٰ عام ٣٤٦هـ بعدها غادرهُ خلسة نتيجة حسد الحاسدين كأبي فراس الحمداني[3] وابن خالويه[4] الذين غيروا قلب سيف الدولة عليه، واتجه إلىٰ كافور ليمدحه وكان يرجو أن ينال من كافور إمارة أو ولاية ولكنه لم يحصل علىٰ ذلك وبقي عنده حتىٰ عام ٣٥٠هـ عندها فارقه دون

---

(١) الفدم: الغبي من الرجال.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٧٣-٣٧٤.

(٣) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان من أسرة بني حمدان وابن عم سيف الدولة وكان فريد عصره في الأدب والكرم والشجاعة قال الصاحب ابن عباد بُدىء الشعر بملك وختم بملك.

(٤) ابن خالويه هو عبد الله بن خالويه النحوي اللغوي من همدان دخل بغداد فأدرك أفاضل العلماء وانتقل إلىٰ الشام واستوطن حلب وصار بها أحد أفراد الدهر في فنون الأدب توفي سنة ٣٧٠هـ.

إذن إلىٰ الكوفة مَسقط رأسه ثم صعد إلىٰ بغداد، فلم يجد الأمور علىٰ ما يشتهي واتفق أن كتب إليه ابن العميد[1] من أرجان يستزيره فذهب إليه ومدحه ثم كتب إليه عضد الدولة بن بويه من شيراز يستزيره فسار إليه ومدحه وفي هذا العام ٣٥٤هـ استأذن المتنبي عضد الدولة لزيارة الكوفة، وفي الطريق عرض له فاتك الأسدي ومعه جماعة وقتله سنة ٣٥٤هـ قرب النعمانية عند دير العاقول.

ويقال إن عضد الدولة دسّ له جماعة لقتله وذلك لأنه قال عندما سأله أحد الناس رأيه في عضد الدولة وعطاياه ومن أفضل هو أم سيف الدولة، فقال: إن سيف الدولة يعطي من طابعه أما عضد الدولة فيعطي تطبعاً.

❊ ❊ ❊

(١) ابن العميد: الأستاذ الرئيس كاتب المشرق ووزير بني بويه توفي سنة ٣٨٥هـ.

obeikandl.com